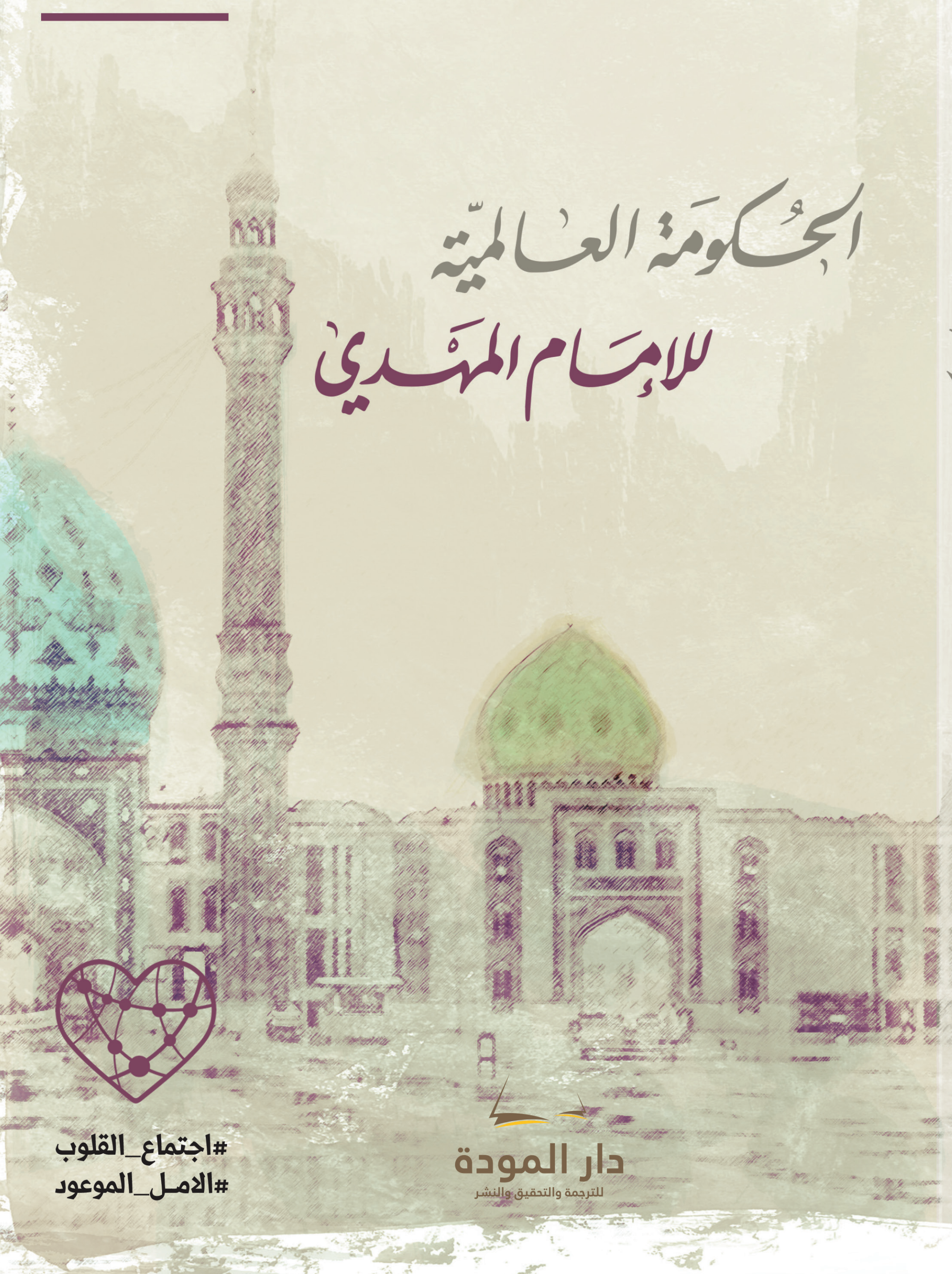
آية الله
الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الحُكومَة العالميّة للإمَام المهَديّ



بسم الله الرحمن الرحیم





اســـم الـكـتــاب: الحكومة العالميّة للإمام المهدي عجل الله فرجه

اســـم الـمـؤلـف: آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

تــاريــخ الـطـبـعـة: ٢٠١٨ م - ١٤٣٩ هـ

طـــبــــاعـــــة: DBOUK 009613336218

ISBN: 978-614-464-012-8

Lebanon , Beirut , sfeir , Moukarzel street
Mob : 00961 70 724 300 | Telefax : 00961 1 270 664
info@diwan-kitab.com | Diwan.kitab.dm@gmail.com

الحكومة العالمية للإمام المهدي

آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الفهرس

مقدمة.......... ٩

مدخل: السؤال الذي يساور جميع الباحثين.......... ١١

الفصل الأول: المستقبل المشرق

أولًا: مسيرة المجتمع البشري التكاملية.......... ١٩

ثانيًا: الانسجام مع النظام العام للخليقة.......... ٢٥

ثالثًا: ردود الأفعال الاجتماعية.......... ٢٩

رابعًا: الإلزامات والضرورات الاجتماعية.......... ٣٥

ملامح من الوعي الذاتي للناس.......... ٣٩

أ - تشكيل المجامع الدولية وإعداد ميثاق حقوق الإنسان.... **٤٠**

ب - الحوار عن نزع الأسلحة.......... **٤٣**

ج - هجوم السلام.......... **٤٤**

د - مشروع الحكومة الإسلامية.......... **٤٥**

خامسًا: الفطرة و«العدل والسلام العالمي».......... ٤٧

١ - حبّ العدل والسلام.......... ٤٩

٢ - الانتظار المطلق للمنقذ.......... ٥١

سادسًا: الشعوب والمصلح العظيم.......... ٥٣

مشروع المصلح في كتب الزرادشتية.......... ٥٣

نماذج هذا الاعتقاد في كتب الهند و«البراهمة».......... ٥٣

قبسات من كتب العهد القديم (التوراة وملحقاتها).......... ٥٤

العلامات في كتب العهد الجديد (الأناجيل وملحقاتها).......... ٥٦

عقيدة الصينيين والمصريين وأمثالهم بهذا الشأن ٥٦
قبسات من عقائد الغرب بهذا الشأن ٥٧

الفصل الثاني: النهضة العالمية

نهضة أم إصلاحات تدريجية ٦٣
الثورة المادية أم المعنوية؟ ٦٧
مثالب الحكومة الديمقراطية ٧١

الفصل الثالث: الاستعدادات الضرورية للحكومة العالمية

أولًا: الاستعدادات العامة ٧٩
١ - الاستعداد الفكري والثقافي ٨٠
٢ - الاستعداد الاجتماعي ٨٠
٣ - الاستعدادات التقنية ٨١

ثانيًا: الانتظار ٨٥
مفهوم الانتظار ٨٥
الانتظار في عمق الفطرة الإنسانية ٨٦
فلسفة الانتظار ٨٩
الأحكام غير المدروسة ٩٠
آثار الانتظار البناءة ٩٢
الانتظار يعني التأهب التام ٩٦
١ - التزكية الفردية ٩٧
٢- التكافل الاجتماعي ٩٩
٣ - عدم الانصهار في بوتقة الفساد ١٠٠

الفصل الرابع: المصلح العالمي العظيم في المصادر الإسلامية

أولًا: صفات الزعيم العالمي..١٠٥
ثانيًا: المصلح العالمي في القرآن..١٠٧
الاستخلاف في الأرض..١١٠
ثالثًا: المصلح العالمي في مصادر العامة..١٢١
من هو المهدي؟..١٢٦
منطق مخالفي أحاديث المهدي..١٣٤
ضعف منطق المخالفين..١٣٤
رابعا: المهدي في مصادر الشيعة الروائية..١٣٩

الفصل الخامس: ملامح انطلاقة النهضة

علامات الظهور..١٤٧
١ - شمولية الظلم والفساد..١٤٨
٢ - الدجّال..١٥٦
٣ - ظهور السفياني..١٦٣

الفصل السادس: العقيدة الشيعية في المهدي عجل الله فرجه الشريف والأسئلة التي تفرزها تلك العقيدة

أولًا: المهدي ثاني عشر خلفاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم..١٧١
ثانيًا: الأسئلة الثلاثة المهمة..١٧٧
١ - سر طول العمر..١٧٧
٢ - فلسفة الغيبة..١٨٩

٣ - فلسفة وجود الإمام حين الغيبة **١٩٦**
فائدة الإمام في الغيبة **١٩٨**
أ - بث الأمل **٢٠٠**
ب - حماية الدين **٢٠٢**
ج - إعداد ثلّة ثورة واعية **٢٠٤**
٤ - النفوذ الروحي والتلقائي **٢٠٥**
٥ - هدف الخليقة **٢٠٩**

الفصل السابع: سبيل انتصار ذلك المصلح العظيم

هل ينهض الإمام بالسيف ٢١٥

الفصل الثامن: سيرة الحكومة العالمية

العصور الثلاثة ٢٢٩
تطور العلوم في عصر المهدي عجل الله فرجه الشريف **٢٣٠**
التطور الصناعي المذهل في عصر المهدي عجل الله فرجه الشريف **٢٣٢**
التطور الاقتصادي والعدل الاجتماعي **٢٣٤**
التقدم القضائي **٢٤٠**
الحكومة المديدة **٢٤٥**
وحدة الدين **٢٥٠**

الفصل التاسع: الأدعياء المزيّفون

ألم يظهر المهدي؟ ٢٥٥

مقدمة

لطالما شغلت فكرة المهدويّة وانتظار المخلّص ألباب وأذهان البشريّة، لما فُطرت عليه من رفض للظلم والجور والطغيان، والتوق للعدالة والحريّة والمساواة والأمن والسلام، فانتظرت الشعوب المظلومة والمضطهدة والمقهورة المخلص الذي سيملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما ملئت ظلمًا وجورًا.

ولأنّ ما يولد من رحم المعاناة، ويجبل بصدق النيّة وخلوصها، يبقى متألقًا، فإننا نعيد نشر كتاب «الحكومة العالميّة للإمام المهدي ﷻ» والذي انتهى آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي من كتابته في العام ١٩٧٨ في منفاه في «چاه بهار»، في أحلك الظروف التي عاناها شعب الجمهوريّة الإسلاميّة من جور وظلم النظام البهلوي الطاغوتي.

ولأنّ الكتاب الأصيل يتبع أصالة الفكرة التي يتمحور حولها ويتحدث عنها، وهي بأصالتها لا تبهت ولا تذبل، بل تزداد رونقًا وجمالًا وصفاءً، ولو تعاقبت عليها السنون. فقد حافظ كتاب آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي على رونقه وحداثة أمثلته وأبحاثه، وهو لا يزال يجتذب القراء إليه.

لذا يسر دار المودّة للترجمة والتحقيق والنشر، أن يقدم لقرائه الأعزاء هذا الكتاب القيّم، ويسأل الله أن يجعله مساهمة في بناء جيل من الممهدين، وأن يفرح قلب الحضرة المباركة لصاحب العصر والزمان عجّل الله فرجه الشريف.

مدخل:
السؤال الذي يساور جميع الباحثين

١. هل سيكون مستقبل البشرية مفعمًا بالعدل والسلام والأمن والأمان والتحرر من كافة أنواع الظلم والجور والاستغلال والاستعباد؟ أم ستشهد هذه البشرية - كما يتكهن البعض - مزيدًا من الفوضى والاضطراب والتعقيد، وبالتالي نشوب الحرب الذرية والنووية الشاملة التي تطيح بأصول المدنيّات والحضارات الإنسانية، فإن كان هنالك ثمة بقاء لأُناس على سطح الكرة الأرضية فسوف لن يكون سوى لبعض الأفراد المتخلفين والمعاقين والبائسين؟

٢. إن صحّ الاحتمال الأوّل في أنّ المستقبل سيشهد العدل والسلام فكيف سيكون ذلك؟

٣. إن كان العالم يحثّ الخطى نحو «العدل» و«السلام» و«التآخي»،

فهل يمكن تنفيذ هذه المبادئ دون النهضة؟ وبعبارة أُخرى، هل يسع الإصلاحات «التدريجية» تغيير السائد لدى العالم رغم انطوائه على كلّ هذه المطبّات؟

٤. إن كانت النهضة ضرورية فهل تقتصر على القوانين المادية، أم يتعذر عليها ذلك دون الاستلهام من المبادئ المعنوية والقيم والمثل الإنسانية؟

٥. لو سلمنا بقيام مثل هذه النهضة، فما هي الصفات التي ينبغي أن يتمتع بها زعيم هذه النهضة؟

٦. هل ستقود هذه النهضة على سبيل الضرورة إلى تشكيل «الحكومة العالمية الواحدة»؟

٧. هل هناك من ضرورة لتوفر بعض الظروف المعينة لمثل هذه الحكومة؟

٨. هل تتوفر مثل هذه الاستعدادات في عالمنا المعاصر؟ وإن لم تكن كذلك فهل ينطلق هذا العالم في العصر الراهن باتجاه تمهيد تلك المقدمات أم بالاتجاه المعاكس؟

٩. هل ترتبط هذه الأُمور - على كلّ حال - بالعقيدة العالمية العامة بالنسبة إلى ظهور المصلح السماوي المطلق؟

١٠. ما طبيعة عقيدة المسلمين بظهور «المهدي»؟ وما كيفية ارتباطها بهذه القضايا المصيرية؟

١١. هل يسوقنا الاعتقاد بهذا الظهور إلى ممارسة العملية الإصلاحيّة للعالم من خلال النهضة الشاملة، أم يبعدنا عنها كما يذهب البعض إلى ذلك؟

١٢. هل تمثل هذه الفكرة والعقيدة الدينية العامة حقيقة واقعية تنطلق من أدلة منطقية، أم لا تعدو الوهم والخيال بغية الإشباع الكاذب لرغبات الإنسان المكبوتة باتجاه ضالته الكبرى في الوصول إلى «السلام» و«العدالة»؟

سعينا في هذا الكتاب للردّ على هذه الأسئلة والاستفسارات بعيدًا عن أشكال التعصّب كافّة والرؤى المتطرفة واجتناب الأحكام التي لا تستند إلى العقل والمنطق؛ الردود التي تنطلق من أعماق النفس، وتحاكي الفكر، وتلبّي تطلعات «العقل» و«العاطفة»، وتشبع حاجات الروح ومتطلباتها.

لقد أوردت عدة أبحاث منذ زمان بهذا الشأن، غير أنّ كثرة المشاغل في قم لم تسمح لي بـ«شرح» و«ترتيب» و«إكمال» ذلك، كما أنّ وساوسي المتواصلة في تدوين الكتاب حالت دون طبعه بتلك الكيفية، فقد كان الكتاب بسيطًا وغير ناضج.

إلاّ أنّ بعض الأحداث دفعتني إلى موقع لم أكن أتصوره أبدًا. چاه بهار!... أي أبعد منطقة إيرانية نائية ذات أسوأ مناخ، تبعد عن العاصمة طهران حوالي ٢٣٠٠ كيلومتر، كما لا تسع إمكاناتها المحدودة أبسط صور المعيشة، حيث يعاني سكانها الأمرّين ويفتقرون إلى أدنى المتطلبات.

وقد تزامن هذا السفر لحسن الحظّ مع فصل الشتاء، الشتاء الذي كان يفيض بعطر الربيع تارة، وتفوح منه رائحة الصيف تارة أُخرى، مع ما يتمتع به من برودة قارسة. ولما كان تسعون بالمئة من أهالي تلك المنطقة من أبناء العامة، فقد اغتنمت الفرصة لألتقي بعض مثقفيهم - لا تذكر الأيّام التي قضيتها في الحجاز - وقد عقدت الجلسات والاجتماعات التي كان هؤلاء الإخوة يمثلون أغلبيتها الساحقة؛ وكانت لهذه الجلسات ثمراتها الرائعة ونتائجها المطلوبة ولله الحمد.

طبعًا كان المجال واسعًا في تلك المنطقة النائية المحاذية لمياه بحر عمان الزرقاء، تحت قبة السماء المفعمة لياليها بالنجوم والكواكب وفي ظلّ العزلة؛ فما كان مني إلاّ أن سارعت في استغلال تلك الفرصة الذهبية لأعكف على تلك الأبحاث (إلى جانب الاستغراق في بعض المطالعات والدراسات الفقهية التي لم أوفق إليها كما ينبغي في قم المقدسة)؛ بالتالي خلصت إلى هذه النتيجة وهي أنّ «النفي» كان مرحلة ضرورية من نواح عدّة ﴿عَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾[1].

آمل أن تكون أبحاث هذا الكتاب قد انطوت على الإجابة عن استفسارات الشريحة الواعية التي تحاول الوقوف عن كثب وبصورة علمية تحقيقية على قضية ظهور المصلح العالمي المطلق.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٦.

كما أرجو الاستلهام من مطالعة هذا الكتاب في مواصلة مسيرتنا الجهادية في مجابهة «الظلم والفساد»، حتّى تحقيق الأهداف المنشودة في القضاء على الطواغيت والجبابرة وتطهير المجتمع من أرجاسهم. ولا يسعنا في الختام إلاّ أن نتوقع إلى حد كبير وجود بعض النقائص في محتويات هذا الكتاب، ولا سيّما بالنظر إلى قلة التحقيقات الواردة بخصوص مطالب هذا الكتاب.

وعليه، فإننا نفتح صدورنا أمام الإخوة القرّاء الأعزّاء ليتحفونا باقتراحاتهم وانتقاداتهم ومراسلتنا مباشرة على عنواننا (قم - الحوزة العلمية).

چاه بهار - ناصر مكارم الشيرازي

شهر صفر سنة ١٣٩٨هـ

شهر شباط سنة ١٩٧٨م

الفصل الأول:
المستقبل المشرق

أولًا:
مسيرة المجتمع البشري التكاملية

لا شكّ أنّ القرائن تشير على ضوء النظرة الابتدائية أنّ «الدنيا» تمضي قدمًا نحو «الفاجعة»؛ الفاجعة الوليدة: «هجران العواطف» و«تعميق الهوة بين المجتمعات الغنية والفقيرة»، و«تصاعد حدة الخلافات والنزاعات ما بين الدول الكبرى والضعيفة»، و«ارتفاع منحنى الجرائم والجنايات»، و«الاختلال الأخلاقي والفكري والروحي»، و«النتاجات المقيتة وغير المتوقعة التي أفرزتها حياة المكننة»، وما شاكل ذلك.

الفاجعة التي تتبين ملامحها من خلال مقارنة الوضع السائد مع الماضي القريب، والتي تعتبر من العناصر المؤثرة في تنمية روح التشاؤم في الأعماق الفكرية لأكثر الأفراد تفاؤلًا.

يقول الخبراء العالميون:

«إنّ حجم القنابل النووية التي تغصّ بها ترسانة الدول الكبرى تكفي لإبادة كلّ ما على سطح الكرة الأرضية ولسبع مرات وليس لمرة واحدة! ولا يبدو من العبث صنع مثل هذه الأسلحة بتلك التكاليف الفادحة التي تحسب بالأرقام النجومية، لقد صنعت لتستخدم في الحرب الذرية الرهيبة؛ كما لا يبدو من الصعب اختلاق بعض الذرائع لانطلاق شرارة هذه الحرب في هذا العالم المُتخم بالصدامات الحدودية واشتباك المصالح والمناطق الساخنة المشرفة على الانفجار. وإنّنا لنلمس «الشعور بالسيطرة والهيمنة» و«جنون القوة» التي تساور أذهان زعماء الدول العظمى، والتي تكفي لنشوب هذه الحرب. وعليه يمكن توقع حدوث «فاجعة كبرى» في المستقبل القريب، ولعلّ البشرية مهددة بالفناء في خضم حرب نووية شاملة، أو إثر الفقر الاقتصادي الذي يفرزه احتكار الدول العظمى، أو بفعل نفاذ مصادر الطاقة أو تلوث البيئة».

على الرغم من كلّ هذه العناصر الداعية إلى التشاؤم، إلاّ أنّ الدراسات والمطالعات العميقة تشير إلى المستقبل المشرق الذي ينتظر البشرية:

- ستزول كلّ هذه السحب القاتمة والزوابع المرعبة.
- ستنطلق تباشير الصباح من عتمة الليل.
- سيدمغ ربيع العدل والقسط شتاء الجهل والفساد والعنف والظلم.

- سينجلي هذا الغمّ القاتل والعواصف المميتة والسيول الهدامة، ولو أمعنّا النظر في آفاق المستقبل لاستجلينا شاطئ النجاة.

والدليل المنطقي الأوّل على هذا الموضوع هو قانون المسيرة التكاملية الذي يحكم المجتمعات:

فالإنسان لم يعِش الحياة الرتيبة قطّ منذ اليوم الذي تعرّف فيه على ذاته، بل اندفع بوحي من نوازعه الباطنية - ولعلّه بصورة تلقائية - للنهوض بوضعه ومجتمعه نحو الأمام. فقد استوطن من حيث المسكن الكهوف والمغارات ذات يوم، وشيّد اليوم ناطحات السحاب التي تستوعب كلّ واحدة منها سكان مدينة صغيرة، وبكلّ الوسائل والإمكانات الضرورية لمعيشتهم.

ومن حيث الملبس، ارتدى يومًا أوراق الأشجار، أما اليوم فهو يمتلك آلاف الأنواع من الألبسة وبمختلف الموضات والتصاميم، ولم يكتف بالبحث عن انتقاء الألوان والموديلات.

وأما مأكله فقد كان يتناول الأطعمة التي كانت الغاية في البساطة آنذاك، بينما تنوّعت اليوم مأكولاته وتشعبت أطعمته بحيث يتطلب ذكر أسمائها كتابًا ضخمًا.

كما كان مركبه يومًا رجليه؛ واليوم يستقل السفن الفضائية، ويحلّق في عنان السماء ويكتشف الكواكب والمجرات.

وكما كانت صفحة واحدة تستوعب يومًا علومه ومعارفه كافة

- وإن لم يتوصّل حينها إلى اختراع الخطّ - لكن تعجز اليوم حتّى ملايين الكتب والمؤلّفات، وفي مختلف التخصصات عن بيان معلوماته ومعارفه.

كان اكتشافه للنار آنذاك واختراع «العتلة» والظفر بالحربة الحادّة الرأس من قبيل «الخنجر»، ممّا يعتبره ذروة الإبداع والاختراع، كما شعر بالفرح المفرط والسرور التام حين أطاح بجذع نخلة؛ ليجعله بمثابة قنطرة يعبر بواسطتها من هذه الضفة من النهر إلى الأُخرى، في حين تمكّن في العصر الراهن من استخدام الصناعات الثقيلة والاختراعات العملاقة التي تخطف أبصار الناظرين، وتقفز به أنظمة العقول الإلكترونية المعقّدة إلى عالم من الأحلام والآمال.

والغريب في الأمر أنّ طموحه لم يتوقّف عند هذا الحدّ، بل واصل سعيه الحثيث ليتسلق قمم التطور والنهوض دون أدنى كلل أو تعب.

ونخلص ممّا تقدّم إلى أنّ باطن الإنسان يشدّه إلى عشق السموّ والتكامل. والحقيقة هي أنّ هذا الأمر يمثل أحد أعظم الامتيازات التي تميّز الإنسان عن الحيوانات وسائر الكائنات الحيّة التي تعشعش ملايين السنين في موضع معيّن وتعيش حياة ظاهرية رتيبة.

كما نخلص إلى نتيجة مؤدّاها عدم خمود تلك الجذوة المتوقّدة في أعماق الإنسان، والتي لا تنفكّ تسوقه إلى الكمال،

وتعبِّئ طاقاته وإمكاناته بغية التغلب على المصاعب والمطبات التي تعترض طريق حياته؛ لتقذف به في خاتمة المطاف في المجتمع الذي يختزن «التكامل الأخلاقي» إلى جانب «التكامل المادي»، المجتمع الذي تغيب فيه مفردات الحرب وسفك الدماء المضاد للتكامل.

المجتمع الذي تنضوي فيه مقدرات الناس كافة لسيادة العدل والسلام، وتموت فيه روح العدوان والاستعباد التي تمثل العقبة الكؤود التي تقف حائلًا دون تكامله المادي والمعنوي.

لعلّ هنالك من يزعم أنّ مسيرة التكامل الماضية إنّما تركزت جميعًا على النواحي المادية، ولا يوجد ما يشير إلى امتدادها لتشمل الجوانب المعنوية.

إلاّ أنّ الإجابة عن هذا السؤال واضحة لما يلي:

أولًا: يمكن الوقوف على العديد من المبادئ المعنوية والأُصول الإنسانية في مسيرة التكامل الماضية؛ فالعلوم التي بلغها الإنسان- على سبيل المثال- في ظلّ مسيرته التكاملية وبالذات غير المادية ليست بالقليلة، فليست هناك من نسبة على سبيل المثال للمقارنة والشبه بين إيمان الإنسان بالله آنذاك والذي كان يعبر عنه بعبادته للحجر والخشب، وما ينحته من التمر، وما هو عليه الحكيم العارف اليوم من إدراك وعبادة.

ثانيًا: التكامل تكامل في المواقع كافة، وليس هنالك من حدود

كامنة في هذا الإنسان بالنسبة إلى عشقه لذلك التكامل. أضف إلى ذلك، فإنّ الأُصول المادية والمعنوية ليست منفصلة عن بعضها. فمثلًا الروح العدائية والمتسلطة المتطلّعة للهيمنة تقضي على الحياة المادية للإنسان على غرار ما تفعله القنبلة الذرية، بل ليس للأخيرة من فاعلية دون الأُولى.

ومن هنا نفهم أنّ هذا التكامل سيتواصل في المجالات كافة.

وعلى هذا الضوء، تلوح أوّل بارقة أمل بغية الانفتاح على مستقبل مشرق زاهر وعالم مفعم بالسلام والوئام والأُخوّة والمساواة في ظلّ «قانون المسيرة التكاملية للمجتمعات».

ثانيًا:
الانسجام مع النظام العام للخليقة

يتألف عالم الوجود من سلسلة من الأنظمة. ووجود القوانين المنظّمة والشاملة في أرجاء هذا العالم كافة دليل على وحدة هذا النظام.

وتعتبر قضية النظم والقانون على مستوى الخليقة من القضايا الأساسية لهذا العالم. على سبيل المثال، لو رأينا مئات الأجهزة الإلكترونية الضخمة تعمل مع بعضها البعض لتمهّد السبيل من خلال حساباتها الدقيقة أمام رواد الفضاء بغية الانطلاق إلى الأقمار والكواكب، وكانت هذه الحسابات صائبة بحيث تهبط السفينة الفضائية على الموضع المتوقع في القمر، على الرغم من حالة الحركة السريعة التي عليها الأرض والقمر، فإنّ ذلك يجعلنا نلتفت إلى أنّ هذه العملية إنما تتم من خلال نظام دقيق يحكم المنظومة الشمسية

وسياراتها وأقمارها؛ ذلك لأنّها إن انحرفت عن مسارها الثابت والمنظم لاختلّت أوضاع رواد الفضاء وقذفوا في المتاهات.

ولو تجاوزنا ذلك العالم العظيم ودخلنا العالم الصغير فالأصغر، فالنظم الحاكم هنا - لا سيّما في عالم الكائنات الحية - يبدو أنصع وضوحًا وحيوية؛ بحيث لا مكان هنالك للفوضى. على سبيل المثال، فإن اختلال نظام الخلايا الدماغية للإنسان كافٍ لتحويل حياته إلى صورة مفجعة مليئة بالهموم والأحزان. نشرت إحدى الصحف خبرًا مفاده أنّ طالبًا جامعيًا نسي كلّ ماضيه إثر حادثة مرورية أصيب خلالها برجّة دماغية؛ بينما لم يكن يشكو من سائر أعضائه؛ لم يعد يعرف أخته وأخيه، ويشعر بالخوف والهلع من أُمّه التي احتضنته وأرضعته وضمته بين ذراعيها، وسهرت الليالي على راحته، فهو ينظر بريب إلى هذه المرأة الأجنبية ما عساها تريد منه؟.

حمل إلى مسقط رأسه، ثم إلى الغرفة التي ترعرع وكبر فيها، يتأمّل أعماله اليدوية واللوحات الفنية، لعلّه يعود إلى رشده فيقول إنّه يشاهد هذه الغرفة وما فيها لأوّل مرة! وربّما كان يظن أنّه قدم من كوكب آخر ليرى كلّ الأشياء التي تبدو له جديدة، ولم يكن قد تعرّف عليها من قبل. بالطبع، إنّما توقفت بعض الخلايا الدماغية ذات الصلة بالذاكرة، والتي تربط الماضي بالحاضر، دون سائر خلاياه التي ربّما جاوز عددها المليار. مع ذلك، فإنّ هذا الاختلال الموضعي البسيط أدّى إلى تلك الآثار السلبية الفادحة. ولو اتجهنا صوب الذرّة وجعلناها تحت المجهر لبدت

لنا بشكل منظومة شمسية، والعكس بالعكس لو صغّرنا على سبيل الفرض المنظومة الشمسية لظهرت كالذرة، فهنالك نظام واحد يحكمهما؛ نظام واحد لأعظم المنظومات وأصغرها.

فهل يستطيع الإنسان في مثل هذا العالم - والذي يشكّل فيه جزءًا من الكلّ أن يعيش وضعًا استثنائيًا - بحيث يخرج من هذا النظام ولا ينسجم معه.

وهل يستطيع المجتمع البشري أن يسلك «اللانظام» والفوضى والظلم والجور، وينأى بنفسه بعيدًا عن مسيرة الخليقة وهذا العالم العظيم بما ينطوي عليه من دقة ونظام؟

أفلا تتدبر من خلال نظرتنا إلى الأوضاع العامة لهذا العالم أن تخضع البشرية برمتها شاءت أم أبت للنظام الذي يحكمه، فتستجيب لقوانينه المنظمة والعادلة، فتعود إلى مسارها الأصلي وتتأقلم مع هذا النظام؟

إنّنا إذا تأملنا البنية المعقّدة لأيّ من أجهزة الإنسان لرأيناها تسير على هدى قوانين وأنظمة دقيقة وغاية في الدقة؛ فإن كان الأمر كذلك فأنّى للمجتمع البشري أن يتمرد على الضوابط والمقررات الصحيحة والعادلة؟ إنّنا ننشد البقاء ونجهد أنفسنا من أجل الظفر به، غير أنّ مستوى تفكير المجتمع لم يبلغ الدرجة التي تجعله يعلم بأنّ مواصلته لهذا الطريق إنّما تنتهي إلى الفناء والزوال، لكنّه يفيق إلى عقله شيئًا فشيئًا ليقف على هذه الحقيقة.

وإنّنا لنسعى إلى تحقيق مصالحنا، غير أنّنا نغفل عن أنّ استمرارنا في ممارسة أوضاعنا الفعلية إنّما تهدّد بالصميم جميع منافعنا ومصالحنا. و نضع نصب أعيننا بعض الأرقام والإحصاءات الحيّة - على سبيل المثال: قضية السباق إلى التسلح - لنرى كيفية ضياع ما يشكّل نصف أنشط القوى الفكرية والطاقات الجسمية لمجتمعات العالم إلى جانب نصف ثرواتها وإمكاناتها في هذا المجال، ليس الضياع فحسب، بل توظّف من أجل القضاء على النصف الآخر.

إنّنا لندرك على ضوء تنامي مستوانا الفكري ضرورة الالتحاق بركب قافلة النظام العام لعالم الوجود، وكما نرانا حقًّا جزءًا من هذا الكل، فإنّ علينا تفعيل ذلك على مستوى العمل، لنتمكّن بالتالي من تحقيق أهدافنا وفي المجالات كافة.

النتيجة: هي أنّ نظام الخليقة يعدّ الدليل الآخر على المستقبل الزاهر للبشرية على ضوء نظام اجتماعي صائب.

ثالثًا:
ردود الأفعال الاجتماعية

إنّ قانون الفعل وردّ الفعل الذي ينصّ على أنّ لكلّ فعل ردّ فعل يساويه في المقدار ويعاكسه في الاتجاه، بحيث لو اصطدم جسم بجدار بقوة معينة، فإنّ هنالك ما يدفعه بتلك القوة نفسها إلى الخلف، لا يقتصر على الأبحاث الفيزيائية، بل يبدو أكثر وضوحًا في القضايا الاجتماعية.

ولعلّ الدراسات التأريخية ترشد إلى أنّ النهضات والثورات العملاقة إنّما كانت على الدوام ردود أفعال مباشرة تجاه ضغوط مسبقة، وربّما لم تقع ثورة عارمة في العالم، إلاّ إثر ضغوط شديدة سبقتها ومهّدت لها. بعبارة أُخرى، إنّ التغييرات والتطورات وليدة التشددات. مثلًا:

١- النهضة العلمية لأوروبا (عصر النهضة) - كانت ردّة فعل إزاء ألف

سنة من الجهل والتخلف السائد في القرون الوسطى، وحجم الضغوط التي مارسها القائمون على شؤون الكنيسة بغية الإبقاء على حالة التخلف لدى الناس - التي قضت على العوامل التي تقف وراء الجهل ورفعت راية العلم والمعرفة فأخذت تخفق في كلّ مكان.

٢- الثورة الفرنسية في العام ١٧٨٩ - التي شكّلت قفزة نوعية في المجال السياسي والاجتماعي، فوقفت بوجه الاستبداد والاستغلال الطبقي والمنطق الغاشم والمتغطرس للأنظمة الحاكمة، وجعلت المجتمع الفرنسي - ومن ثمّ سائر المجتمعات الأوروبية - تدخل مرحلة تأريخية جديدة يسود فيها القانون-إلى حدود معينة - بدلًا من الاستبداد والطغيان.

٣- الثورة ضدّ العبودية - التي انطلقت شرارتها الأُولى في العام ١٨٤٨ من بريطانيا - والتي أفرزتها المعاملة الفظة والغليظة لـ«أسياد» تجاه «العبيد»، فأجّجت نار الثورة لدى العبيد من جانب، وأثارت عواطف المجتمع لصالح أولئك العبيد من جانب آخر، فانتهى الأمر إلى زوال نظام الاستعباد، وإن اتّخذ هذا الاستعباد صيغًا أُخرى أكبر سعة وأعظم خطورة، حيث ظهر «الاستعمار» بذريعة «إعادة بناء البلدان المتخلفة». على كلّ حال، كان ينبغي القضاء على نظام العبودية، لكن أُسلوب التعامل مع العبيد عجّل في القضاء عليه.

٤- الثورة على الاستعمار، في عصرنا الراهن كانت وما زالت ردود

فعل مباشرة لأساليب المستعمرين وتصرّفاتهم، والتي ألهبت مشاعر قطاعات الناس وجعلتهم يهبّون لمناهضة القوى الاستعمارية، وإن لم تتمخّض هذه المواجهة عن استقلال تامّ اقتصادي واجتماعي وسياسي وفكري؛ غير أنها أفرزت أوضاعًا يصعب مقارنتها بما كانت عليه سابقًا.

٥- الثورة الشيوعية - في العام ١٩١٧م كردّة فعل لظلم الرأسمالية وهضمها لحقوق أغلبية طبقات المجتمع الكادحة والمحرومة؛ رغم ما ذكرناه في موضعه - من أنّ هذه الثورة لم تحرّر هذه الطبقات الضعيفة وترفع من شأنها واستعاضت عن ذلك النظام الاستبدادي بنظام ظالم آخر تمثّل في «ديكتاتورية البروليتاريا» والتي تمثّل في الواقع هيمنة بعض رموز الحزب الحاكم.

٦- الثورة على التمييز العنصري كردّة فعل قام بها ذوو البشرة السوداء «الزنوج» ضدّ ذوي البشرة البيضاء، إلى جانب حرمانهم من حقوقهم الاجتماعية.

ولو تصفحنا التاريخ وعُدنا إلى الوراء، فإنّنا سنواجه قانون ردّ الفعل في كلّ مكان. تاريخ الأنبياء هو الآخر ينطوي على سلسلة من النهضات والحركات التي أفرزها ما سبقها من ضغوط اجتماعية قويّة، وقد وجه الأنبياء تلك النهضات في مسارها الصحيح من خلال قيادتها على ضوء التعاليم السماوية. ولعلّنا لا نتلمّس مظاهر هذا القانون في التاريخ القديم والمعاصر في القصص الواقعية لحياة الأُمم والشعوب فحسب، بل إنّنا نرى نماذج ذلك القانون في أساطير سائر الأقوام.

فقد جاء في أُسطورة «الضحاك» و«كاوه الحداد» أنّ دماغ الإنسان كان طعام الحيتان التي يحملها على كتفه، وكان عليه أن يخرج كلّ يوم دماغًا من جمجة ويعطيها الحيتان كي تقرّ وتهدأ. ولعلّ هذه هي حقيقة «الاستعمار» الذي يقتات على الأدمغة؛ حيث يعتبر الاستعمار الفكري الدعامة الأساسية لكافة أنواع الاستعمار.

ثمّ يطالعنا من بين ذلك المجتمع المحروم، والذي يعاني من سطوة الضحاك، حدادًا ذاق طعم النار فشمّر عن ساعديه، وجعل صدريته راية للثورة فواجه طغيان الضحاك وأطاح به.

وتضمن علم النفس المعاصر بحثًا يكشف عن هذا القانون يفيد هذا البحث: بأنّ رغبات الإنسان ما لم تشبع بالصورة المناسبة، فإنّ هذه الرغبات تكبت في اللاشعور؛ لتنتقل من مرحلة «الشعور الظاهر» إلى مرحلة «الباطن» فتثير عقدة في الضمير الباطن لدى هذا الإنسان. بل أبعد من ذلك، إنّ البعض يعتقد أنّ الضمير الباطن ليس بشيء سوى هذه الرغبات المكبوتة، وأنّها لا تستقرّ في ضمير الإنسان وتنطفئ جذوتها، وتسعى دائمًا لأن تطفو على السطح؛ وتبدو ردود فعل هذه العقد متفاوتة لدى الأفراد، لكن يمكن القول إنّها عادة ما تعبّر عن نفسها بإحدى الصيغ الآتية:

١- عن طريق إيجاد بعض الاختلالات النفسية وعرقلة التفكير التلقائي.

٢- عن طريق الهروب من المجتمع والتقوقع والتشاؤم.

٣- عن طريق الثأر من المجتمع الذي جعله كذلك.

٤- عن طريق الإشباع الفارغ والخيالي.

٥- عن طريق «التصعيد» والتحليق نحو المراحل الأرفع.

مثلًا، افرض أنّ فتى كانت له رغبة شديدة بفتاة، وحال والداه دون الزواج من هذه الفتاة، فالواقع أنّ هذه الرغبة الجامحة ستكبت في عقله الباطن، وهي ليس فقط لا تزول، بل ستظهر سريعًا بصيغة ردود أفعال عنيفة. فلربّما جعلته مجنونًا، أو تسوقه إلى التقوقع والانطواء، أو تحيله إلى إنسان يحبّ الثأر والانتقام، وبالتالي تجعله مجرمًا خطيرًا، أو تشدّه إلى الشعر والأدب، ليعيش تلك الأجواء الرومانسية التي تسوقه إلى الأحلام بغية الوصال بالمحبوب.

لكن قد يتبدّل نفس هذا العشق المادي أحيانًا إلى عشق سماوي ورباني عميق، فينزع من قلبه ما سوى الله ليكون شخصًا عارفًا وحكيمًا منطويًا على أفكار رفيعة متعالية. طبعًا ينشأ هذا الاختلاف من سائر الاختلافات النفسية والاستعدادات الروحية لمختلف الأفراد.

وبناءً على ما تقدّم، فإنّنا نلاحظ أنّ الضغوط النفسية إنّما تواجه عادة بردود فعل عنيفة وثورات ونهضات متنوعة.

النتيجة:

يشير هذا القانون إلى أنّ أوضاع العالم الراهنة حبلى بالثورة.

فضغوط الحروب والمظالم والممارسات الشنعاء والتمييز العنصري وانتهاك العدالة، إلى جانب فشل الإنسان، وشعوره بالإحباط من القوانين السائدة في القضاء على هذه الضغوط ومعالجتها، سيجعلها تبرز إلى السطح في خاتمة المطاف بصيغة ردود فعل عنيفة. وبالتالي، فإنّ هذه الرغبات الإنسانية المكبوتة ستتحول في ظلّ تنامي مستوى يقظة الأُمم إلى عقدة اجتماعية تنطلق من العقل الباطن للمجتمع لتطيح بهذا النظام السائد لدى المجتمعات البشرية، وتقدّم مشروعها الحديث؛ المشروع الذي يغيب فيه سباق التسلح المقيت من جانب، كما لا تشمّ فيه رائحة النزاعات البغيضة والحروب الدموية الطاحنة ومفردات الاستعمار والاستبداد والظلم والفساد من جانب آخر.

وهذه بارقة أمل أُخرى على إشراقة المستقبل الذي ينتظر المجتمع العالمي.

رابعًا:
الإلزامات والضرورات الاجتماعية

المراد من «الإلـزام الاجتماعـي» أنّ وضع الحياة الاجتماعية للإنسان يبلغ مرحلة؛ بحيث يشعر بحاجته إلى مطلب معيّن بصفته ضرورة.

ونعلم بالطبع أنّ الإنسان يريد بادئ الأمر أن يكون حرًّا من جميع النواحي، دون أدنى قيود أو حدود تعكّر صفو حياته، غير أنّه يدرك شيئًا فشيئًا أنّ مثل هذه الحرية تنأى به بعيدًا، وتحرمه من سلسلة من الاعتبارات التي تتمتّع بها الحياة الجماعية، وبالتالي لا تلبّي رغباته الأصيلة والأساسية، ولو لم يقرّ ببعض القيود والبنود التي يصطلح عليها بالقانون، فسوف لن يكون نصيب المجتمع الذي يعيش فيه سوى الفوضى والهرج والمرج والفناء.

وهنا ينصاع إلى القوانين والمقررات، كما أنّ تطور المجتمعات يسهم كلّ آن في

مضاعفة هذه القيود، وعليه أن يقرّ بها جميعًا كضرورة. أضرب مثلًا بسيطًا على هذا الموضوع بشأن مقررات قيادة السيارات والإشارات الضوئية، فالإنسان الذي يمتلك سيارة حديثة سريعة يرغب بأن يمارس حريته في الذهاب إلى أيّ مكان، والوقوف في الموضع الذي يحب، والسير بالسرعة التي تعجبه، ومواصلة الحركة في تقاطع الطريق بعيدًا عن الوقوف وضياع الوقت وانتظار إشارة المرور؛ لكنّه سرعان ما يفهم أنّه إن فعل ذلك فليس هنالك ما يمنع الآخرين منه، وبالتالي سوف لن يكون هناك سوى الفوضى والإرباك وأنواع المخاطر.

وعليه، فإنّ عدم صواب هذا العمل لا يخفى اليوم حتّى على الأطفال؛ ولا بدّ من وجود بعض المقرّرات وإن تأخّر الإنسان لساعات قبل بلوغه المكان الذي يريد. كما لا بدّ أن تكون هنالك بعض الغرامات والضوابط الشديدة (العادلة والمنسجمة مع العقل)، وإلاّ فإنّ مئات الأفراد سيفقدون أرواحهم كلّ يوم أو تتحطّم سياراتهم الشخصية.

هذا ما نقوله عن «الضرورة» أو «الإلزام الاجتماعي»، إلاّ أنّ المهمّ هو أنّ «الحاجة الواقعية» لمجتمع تبدو ملحّة بحيث يقرّ بضرورتها على الأقل مفكرو المجتمع وقادته؛ ويتوقّف هذا في الدرجة الأُولى على الوعي الاجتماعي لأفراد المجتمع، ومن ثمّ اتّضاح النتائج السلبية لأوضاع المجتمع القائمة، واستحالة مواصلة الدرب. ولذلك لا نرى من جدوى للصرخات التي تطلق هنا وهناك بشأن تلوّث البيئة، وليس هنالك من يكترث للمقررات المتعلقة بنظافة البيئة.

لكن حين يرى الناس - على سبيل المثال - التلوث الذي يصيب منطقة معينة كطهران؛ بحيث يبرز فيها العديد من الأمراض التي تهدّد صحة الناس، ويتعذّر عليهم التنفس، وتصاب عيونهم بالحرقة، حتّى قال بعض الإحصائيين يصاب عشرة أشخاص بالعمى يوميًا، ويسود اللعاب لمجرد التواجد بضع ساعات في المدينة، وانتشار الأمراض الجلدية، وضيق الأجهزة التنفسية، وإصابة القلب والكبد، وظهور حالات التسمّم، فهنا ينصاع إلى المقررات الشاقة والمعقدة بصفتها ضرورة، ويستجيب لكافة الأُمور من قبيل إغلاق المصانع والمعامل الضخمة، والتخلّي عن آلاف وسائط النقل ذات الدخان، والامتناع عن ممارسة أغلب الأنشطة الاقتصادية ذات الأرباح الباهظة والتي توجب تلوث الأجواء.

ونعود الآن إلى أصل الموضوع على ضوء هذا المثال، لعلّ الصورة التي رسمها إنسان القرن السابع عشر والثامن عشر عن القرن العشرين إثر مشاهدته للتطور الصناعي إنّما كانت جنّة، فاعتقد أنّ تلك الثورة الصناعية التي انطوت على كلّ هذا التطور والازدهار ستؤدي يومًا إلى:

- اكتشاف المصادر الجوفية الواحد تلو الآخر.
- السيطرة العلمية على الطاقة «الذرية» التي تعدّ أهم وأعظم مصادر الطاقة.
- تحقيق حلم الإنسان بالتحليق في السماء.
- بمجرّد أنّ يضغط الإنسان على زر سينظّف البيت وينضج الطعام وتُغسل الثياب ويدفأ البيت في فصل الشتاء ويبرد

في الصيف؛ وما إن يضغط على زر حتّى تحرث الأرض فيلقي فيها البذور، ويجني محاصيلها بالماكنة والحاصودة؛ فيعلبها ويجهزها للاستهلاك، إلخ. آنذاك يجلس الإنسان في موضعه وينعم بالرفاه والدعة.

لكنّه غفل عن أنّ إنسان الصناعة وحياة المكننة سوف لا يتمتّع بهذه الرفاهية، بل سوف لا ينتهي هذا التطور التكنولوجي سوى إلى المزيد من التعقيدات والإرباكات التي تكدّر صفو الحياة، وسيلقي شبح «الحروب العالمية» بظلاله المرعبة على كافة مرافق حياته بما فيها قطاع الصناعة بالشكل الذي يحيلها خرابًا ودمارًا. حينئذٍ يدرك مدى خطورة هذه الحياة. فإن كان الكلام في الماضي عن الحروب التي تودي بحياة بضعة آلاف من الناس، فالحديث اليوم عن حربٍ متوقعة أدنى نتائجها حضارة العالم والمدنية والعودة القهقرى إلى العصر الحجري. وسيفهم تدريجيًا أنّ المقررات السابقة لم تعد كافية لحفظ النجاحات الباهرة التي حققها في ميدان الصناعة والحضارة، ولا بدّ من الانصياع لمقررات إضافية جديدة.

كما سيشعر شيئًا فشيئًا بأنّ «قيام الحكومة العالمية الواحدة» التي ستضع حدًّا لسباق التسلّح المهلك والقضاء على أطماع الدول الكبرى، وما تثيره من نزاعات وصدامات، سيكون «ضرورة» و«واقعًا لا بدّ من تحققه»، آنذاك ستزول هذه الحدود المصطنعة ذات الطبيعة المعقّدة لتعيش البشرية برمّتها تحت راية واحدة، وتمارس حياتها في ظلّ قانون واحد جامع.

وسيأتي اليوم الذي يتكامل فيه الشعور الاجتماعي والوعي

لدى العالم؛ ليرى بوضوح ذلك التوزيع الظالم للثروات؛ بحيث ينعم البعض بالرفاهية وطيب العيش ويفرد فيه بعض الأماكن للحيوانات (كالكلاب والقطط) من قبيل المستشفيات والأطبّاء والمباني الشاهقة، بينما يئنّ البعض الآخر من الجوع والعطش والحرمان من أدنى متطلبات العيش ووسائل الحياة.

لا شكّ في أنّ العالم لم ولن يذوق طعم الأمن والاستقرار إن ظلّ مفتقرًا للنظام الذي يتكفّل بالتوزيع العادل للثروات، وسوف لن يقتصر البلاء على البلدان الفقيرة دون تلك الغنية. فإن بلغت هذه الأمور مرحلة الضرورة إثر اتضاح وظهور ردود الفعل المقيتة التي يفرزها الواقع الموجود وتنامي الشعور الاجتماعي العام، آنذاك ستكون الثورة والنهضة حتميّة الوقوع، على غرار ما حصل في الماضي.

وعليه، فإنّ «الإلزام الاجتماعي» يُعدّ العنصر الآخر الذي سيدفع بالمجتمع البشري - شاء أم أبى - نحو حياة مفعمة بالعدل والسلام، ويرسي قواعد الحكومة العالمية على أساس مشروع جديد.

ملامح من الوعي الذاتي للناس:

كان الموضوع في أنّ القرائن الموجودة هل تشير إلى أنّ مستقبل العالم يتمثّل في العدل والسلام أم الظلم والقضاء على الجيل الإنساني؟

ظفرنا لحدّ الآن من خلال أربعة طرق على بعض الأدلة الواضحة التي تؤيّد الاحتمال الأوّل، لكن قد يقال بالمقابل إن كان الأمر كذلك،

ما لنا لا نرى في ظلّ هذه الأوضاع والحياة المعاصرة ما يشير إلى أنّ البشرية تتجه نحو تحقيق الأهداف المذكورة، بل بالعكس ليس هنالك - وعلى ضوء الوضع القائم - سوء اليأس والإحباط.

نحن بدورنا نقرّ بأنّ الأمر يبدو كذلك للوهلة الأُولى، إلاّ أنّ التأمّل يفيد بأنّ الإنسان المعاصر يحثّ الخطى باتجاه الهدف المذكور، وتبدو ملامح وعيه الذاتي على مستوى الفكر والحياة، على الرغم من كلّ هذه الانتهاكات والاعتداءات والمظالم والدمار.

وعلى الرغم من أنّ هذه الخطوات ليست بالكبيرة، أو الجديّة كما ينبغي، مع ذلك فهي طفرة جديرة بالاهتمام بالنسبة إلى الإعداد الفكري للأجواء.

وإليك بعض نماذج هذه القرائن:

أ - تشكيل المجامع الدولية وإعداد ميثاق حقوق الإنسان:

نعلم أنّ الحرب العالمية الأُولى والثانية أشبه شيء بحالة الجنون الإدواري في العالم البشري، لكنّها أفرزت بعض العناصر التي تدعو إلى الوعي واليقظة إزاء تلك الآثار السلبية المميتة.

لقد تشكّلت «عصبة الأُمم» عقب الحرب العالمية الأُولى، لكنّها لم تلبث حتّى تعالى زئير قذائف مدافع الحرب العالمية الثانية. وعلى الرغم من قصر مدّة تلك التجربة، إلاّ أنها أدّت إلى تشكيل مرجعٍ عالميّ يبدو أكثر رصانة من سابقه اصطلح عليه باسم «منظمةِ الأُمم المتحدة» التي أصدرت تلك الوثيقة الرائعة «ميثاق حقوق الإنسان».

طبعًا لا ننكر أنّ أغلب مواده وفقراته من قبيل المثل المعروف لدينا «القط والجرس»، ولا يمكن أن نظفر بمن يسعه تعليق الجرس على القط في الظروف الراهنة، مع ذلك لا يسعنا أن ننكر أيضًا كونه يشكّل خطوة إيجابية رغم ما يكتنفه من نقص ومثلبة، وأنّ أغلب الناس تؤمن بصحّة هذا الأُسلوب وإن تعثّروا في العمل. ولكم أن تلاحظوا الآن، أليست هذه المواد التي سنوردها من الميثاق المذكور، هي تلك التي ذكرناها في الأبحاث السابقة؟!

المادّة الأُولى: جميع الأفراد يردون أحرارًا إلى الدنيا، وهم إخوة في الحقوق والاعتبار، لكلّ منهم عقل وضمير، وينبغي أن يعامل بعضهم البعض الآخر بروح التآخي.

المادة الثالثة: لكلّ حقّ الحرية والحياة والأمن و...

المادة الخامسة: لا يحقّ لأحد أن يعذّب آخر ويعامله معاملة سيئة وظالمة خلافًا للمبادئ الإنسانية.

المادة السادسة: ينظر القانون إلى كلّ شخص بصفته إنسانًا أينما كان.

المادة السابعة: الكلّ سواسية أمام القانون، ويتمتعون جميعًا بحماية القانون دون تمييز ويتساوون في الحقوق.

المادة السادسة والعشرون: لكلّ فرد حقّ التربية والتعليم... وأن تكون غاية هذا التعليم إيصال الإنسان إلى التنمية والازدهار، ويراعي حقوق الناس وحرياتهم.

المادة التاسعة والعشرون: كلّ فرد مكلّف إزاء المجتمع بتوفير ممهدات حريته وتبلور شخصيته.

وأخيرًا، فإنّ المادة الثلاثين من الميثاق المذكور تغلق الطريق بوجه جميع المستغلين، حيث تقول: «لا ينبغي تفسير أيّ من مواد هذا الميثاق بحيث يتضمن حقًّا لدولة أو جمعية أو فرد من شأنه القضاء على الحقوق والحريات الواردة فيه».

نُذكِّر ثانية بعدم تفاؤلنا إلى هذا الحدّ في أنّ هذه الشعارات البرّاقة التي تسحر القلوب إنما تشبه إلى حدّ بعيد، وفي ظلّ الظروف الراهنة، حلمًا جميلًا بعيدًا جدًّا عن التحقّق الخارجي، لكن لا يسعنا بالمقابل إنكار هذه الحقيقة في أنّ الميثاق المذكور جعل البشرية تدخل مرحلة تاريخية جديدة.

نعلم أنّ «منظمة الأُمم المتحدة» هي في الواقع بحكم «المنظمة الأُمّ»، وقد انبثقت منها عدّة ، إحداها تتمثل في «مجلس الأمن».

الفارق بين هذا «الابن» وتلك «الأُمّ» أنّه ليست لهذه الأخيرة من قدرة تنفيذية، ولا تعدو مقرّراتها كونها سلسلة من الوصايا الرسمية لبلدان العالم. ومن هنا، فإنّ بعض الأفراد المتشائمين لا يروا في هذه المنظمة الدولية سوى أنّها «منبر خطابة» أو «صالة الخطاب العالمي»، أو «البرلمان الحرّ»، وما إلى ذلك من المسميات. لكن مهما يكن الأمر، فهي تستبطن هذه الفائدة في اشتراك كافة بلدان العالم فيها في التصويت على أساس «التكافؤ والمساواة»، ولمقرراتها آثارها النفسية والمعنوية الواضحة لدى الشعوب والرأي العام العالمي. بينما يتمتع «مجلس الأمن» بقدرة إجرائية وتنفيذية كافية. ولو أراد لاستطاع

تفعيل قراراته، لكن ممّا يؤسف له افتقاره للقدرة الكافية على التصويت والاقتراع؛ ذلك لتمتع الدول العظمى الخمس - أميركا، وروسيا، والصين، وفرنسا وبريطانيا - الدائمة العضوية بحقّ النقض «الفيتو»؛ حيث يسعها إحباط أي قرار لا يروق لها.

ولعلّ هذا الحقّ الذي خلفه الاستعمار إنما يهدد هذا المركز الدولي ويعطل جميع مشاريعه وقراراته.

ونخلص ممّا سبق إلى أنّ هنالك مؤسسة تتمتع بقدرة الإجراء دون التصويت، وأُخرى تصوّت دون أن تكون لها قدرة على الإجراء والتنفيذ.

لكن على الرغم من كلّ هذه الإشكالات، فإنّ هذه المنظمة الدولية وإنجازاتها، وهذه المؤسسة ذات الضجيج العالي والقليلة الأثر، إن راعينا العدل والانصاف، استطاعت أن تقوم إلى حدّ الآن ببعض الأعمال المهمة - على الرغم من صغرها - وبغضّ النظر عن فاعليتها، فإنّ صورتها الظاهرية هذه دليلٌ على تبلور أُسلوب حديث من التفكير في العالم انطلق من مراحل «شبه جدية» أقرب إلى العفوية والمزاح، وتتحرك باتجاه مراحل أكثر جدية؛ بحيث تشعر جميع بلدان العالم على الرغم من اختلافها في المذاهب والأساليب أنّها بحاجة إلى وجود هذه المنظمة، ولا ترى صحّة تجاهلها.

ب - الحوار عن نزع الأسلحة

على الرغم من أنّ هذا الموضوع لم يخرج إلى حدّ الآن من

دائرة النقاش وعقد الاجتماعات واستهلاك الأوراق، وكلّ ما صدر إلى حدّ الآن من المنظمات العالمية لنزع الأسلحة إنّما يدلّ على «اتساع سباق التسلّح»، إلاّ أن ترحيب عامة بلدان العالم بهذا الاقتراح يكشف عن ظهور اليقظة والوعي في الضمير العالمي، وعلى الأقلّ فإنّ الدول الكبرى والصغرى كافّة وقفت على عظم حاجتها لكلّ هذه «الثروات» و«الأدمغة» لتوظّف في «القضايا العمرانية»، بدلًا من هدرها في صنع الآلات العسكرية مع ما تتطلّبه من طاقات بشرية، فالكلّ يسعى على طريقته لينقذ نفسه من هذا الفخ الخطير. ولا بدّ أن تأتي الساعة التي تُستغلّ فيها هذه الثروات الإنسانية والاقتصادية العظيمة لصالح البنى التحتية والمراكز الخيريّة الضعيفة. لقد قدّمت إحدى مؤسسات الإحصاء العالمية بعض الإحصاءات الخيالية بشأن الميزانية التي ترصدها كلّ دولة من الدول العظمى لجيوشها وجنودها - الجنود الذين يمثلون أعظم أعضاء المجتمع فتوة وحيوية - مع ذلك تشير الإحصائية المذكورة إلى وجود نزعة تفكيرية إلى جانب ذلك البرنامج الفاحش، والتي تصرّح باستحالة استمرار هذا البرنامج ولا بدّ من إعادة النظر فيه. وهذا بدوره يشكل خطوة أُخرى نحو تحقيق ذلك الهدف العظيم.

ج - هجوم السلام

يتحدّث الجميع في عالمنا المعاصر عن السلام؛ حتّى طلاب الحرب؛ ذلك لأن النفرة من الحرب أصبحت أمرًا شاملًا، وما زالت الصور المرعبة لآثار الحروب العالمية المدمرة عالقة في

الذاكرة ولا يمكن نسيانها، على الرغم من أنّ التحمس للصلح والسلام - كسائر رغبات الإنسان - لم يتجاوز حدود الأمنية، وما زال يُستغلّ هنا وهناك بصفته شعارًا. مع ذلك، فإن هذا الوضع - على كلّ حال - يشير إلى «عطش عام» إلى «ماء الصلح» من قبل الجميع. والواقع هو أنّ الناس تنظر إلى ذلك بصفته الركيزة الأساسية للنهوض بمرافق الحياة كافّة، ولا سيّما بالنظر إلى أنّ الحروب الحديثة باهظة التكاليف ومدمّرة. فقد يعاني بلد من تخلف اقتصادي وعمراني لعشرات السنين إثر بضعة أيّام من الحرب، ناهيك عن تكبّده أفدح الخسائر بالأموال والأرواح، ولربّما بلغت المليارات من الدنانير وآلاف القتلى والجرحى. حقًّا لا ينبغي الاستخفاف بهذه الرغبة العامّة؛ لأنّ كلّ نهضة وحركة إنّما تنطلق بادئ الأمر على أساس كونها «أمنية» و«رغبة دون سند» أو «شعار برّاق»، ومن ثمّ تتحول إلى «ضرورة» و«واقع قائم» يغيّر تدريجيًا أركان المجتمع.

تفيد التقارير أنّ وقف إطلاق النار بين فيتنام وأميركا نُقِض خمسمئة مرّة، لكنّنا رأينا في خاتمة المطاف كيف بلغ المرحلة الجديّة والقطعيّة، والضرورة التي ينبغي تحقّقها إنّما تحققت بانتصار فيتنام.

د - مشروع الحكومة الإسلامية[١]

حظيَ هذا المشروع أخيرًا بالكثير من الأنصار، وورد الحديث بشأنه في الأوساط المختلفة، حتّى ذهب البعض إلى اعتبار أنّ

---

(١) لا بدّ من الالتفات إلى أنّ هذا الكتاب ألّف قبل الثورة الإسلامية الإيرانية.

مشروع اللغة الدولية الذي أخذ يتنامى تأثيره ويتّسع مؤخرًا إنّما يعدّ مقدمة لذلك المشروع الكبير. وهذا بدوره يمثل خطوة مؤثرة أُخرى بغية بلوغ ذلك الهدف النهائي.

طبعًا ممّا لا شك فيه أنّ التوجه الراهن للعالم في ظلّ هذه الظروف لا يبدو مستعدًّا لمثل هذه الحكومة؛ ذلك لأنّ قضيّة الأعراق السوداء والبيضاء لم تحل في المجتمع الذي يعدّ مدنيًا متحضرًا كالولايات المتحدة. وما زال ذوي البشرة السوداء يئنّون في هذا المجتمع من التمييز العنصري المقيت. وما زال النظام العنصري في جنون أفريقيا يحظى بدعم الدول العظمى، وما زالت الهوة قائمة بين الفئات الثلاث «المتخلّفة» و«السائرة نحو التنمية» و«النامية»، بل تعمقت أكثر فأكثر.

لكن على الرغم من كلّ ذلك - كما قلنا - فإنّ سعة هذه الأفكار وانتشارها واستيعابها من قبل أغلب قطاعات العالم وإن لاح في الأُفق البعيد، إلاّ أنّه دليل حيّ على نضج الاستعداد الروحي والفكري والاجتماعي لتحقق العدل والسلام العالمي.

ناهيك عمّا أوردنا، فإنّ بعض القرائن الأُخرى هنا وهنالك في المجتمعات البشرية من قبيل «السوق المشتركة» و«المحافل الدولية الكبرى» وأشكال النزوع كافّة نحو الحياة الجماعية والجنوح نحو الوحدة، تشير جميعًا إلى أنّ العالم قطع مسيرة طويلة نحو الهدف المذكور؛ ويبشرنا في خاتمة المطاف ببلوغ هذا الهدف.

خامسًا:
الفطرة
و«العدل والسلام العالمي»

يمكن دراسة كلّ قضية من خلال طريقين؛ «العقل» و«العاطفة والفطرة». والفطرة هي الإلهام والإدراك الباطني الذي لا يحتاج إلى الدليل، أي يقرّه الإنسان ويؤمن به دون قيام الدليل والبرهان. وربّما تكون هذه الإلهامات الباطنية أعظم أصالة من أحكام العقل، حيث هذه إدراكات ذاتية، وتلك معلومات اكتسابية.

ويصطلح عادة على هذه الإلهامات لدى الحيوانات بـ«الغريزة»؛ ولهذه الغرائز قاعدة عريضة في الحيوانات إلى جانب دورها المهمّ؛ بل يمكن القول إنّ المحور الأصليّ لحياة الحيوانات إنما يستند إلى الغرائز.

وقد تكون انعكاسات هذه الغرائز على درجة من الدهشة؛ بحيث يشعر الإنسان إزاءها بالعجز رغم امتلاكه لكلّ

هذه الوسائل الصناعية المتطورة والأدوات الإلكترونية المعقدة. مثلًا، كثيرة هي الحيوانات والحشرات التي تتحسس وضع الجو، لعلّ ذلك أحيانًا ليوم واحد وأحيانًا أُخرى لستة أشهر، بل قرأت في صحيفة أنّ نوعًا من الجراد يتكهن بأوضاع الجو قبل سنة، حقًّا إنّه لمن المثير للدهشة أنّ إنسان عصر الفضا، ورغم كلّ ما يمتلكه من أجهزة دقيقة صنعت لأجل التكهن بالأحوال الجوية، ونصبه لكلّ المراصد في مختلف المناطق وإعداده للخرائط الجوية وما يرصد لها من ميزانية ضخمة لا يسعه التكهن بهذه الأوضاع لأكثر من ست ساعات، وبالعبارات التالية المذبذبة:

- غائم جزئيًّا.
- غائم تمامًا.
- مع احتمال زخات مطر.
- ولعلّه يكون مصحوبًا بمطر شديد.
- ويحتمل أن يكون صحوًا ومشمسًا!

أمّا تلك الحشرة العالمة بالأنواء الجوية فهي تتكهّن بالأوضاع قبل ستة أشهر ودون الاتصال بسائر الحشرات؛ أي تتنبأ بأوضاع الشتاء في فصل الصيف وتعدّ نفسها للتكيف مع تلك الأوضاع.

ولعلّ سبب قلة معلومات الإنسان الفطرية مقارنة بسائر الكائنات الحية إلى الحيز العظيم من القدرة العقلية المودعة لديه، والتي يمكنها معالجة نقصه في سائر المجالات. لكن على كلّ حال، فإنّ الإنسان يستلهم من هذه الفطرة في تلبية حاجاته

الضرورية وشؤونه المعاشية في حياته، ولهذا السراج دوره في إرشادنا إلى مسيرتنا القادمة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل لهذه الإلهامات الفطرية أن تساعدنا بشأن ما نحن بصدده، أي نهاية العالم بالحرب وسفك الدماء والظلم والجور أو قيام حكومة العدل والسلام والأمن أم لا؟

الجواب بالإيجاب عن هذا السؤال: فهنالك قرينتان مهمّتان يمكنهما إرشادنا إلى هذه الحقيقة:

١ - حبّ العدل والسلام

هنالك حبّ للعدل والسلام كامن في عمق روح كلّ إنسان؛ فالجميع يتلذذ بالعدل والسلام؛ والكلّ يسعى إلى عالم يسوده هذان الركنان؛ على الرغم من كلّ الخلافات السائدة بين الشعوب من حيث أُسلوب التفكير والسن والآداب والعادات والتقاليد والمدارس والمذاهب والنزعات والرغبات. فالجميع مغرم بالعدل والسلام دون استثناء، ولا أظنّ أنّ هناك دليلًا أعظم من كون القضية فطرية؛ فالمُفرغ منه أنّ شمولية وعمومية المتطلبات دلالة على فطريتها.

فهل هذا عطش كاذب؟ أم إنّه حاجة حقيقية تهتدي إليها الفطرة بمعونة العقل، ليؤكد ضرورتها الملحة؟.

أفلا يدلّ عطشنا الدائم على وجود الماء في الطبيعة، ولو

لم يكن للماء وجود خارجي، فهل من وجود في باطننا للعطش والرغبة فيه؟ إنّنا لنصرخ، ونتأوّه، وتتعالى أصواتنا في طلب العدل والسلام؛ وهذا دليل على تحقّق هذه الرغبة في خاتمة المطاف وتطبيقها في العالم.

ليس هنالك أصلٌ من مفهوم للفطرة الكاذبة؛ ذلك لأننا نعلم أنّ الخلق وعالم الطبيعة وحدة واحدة متصلة، وليست مركّبة من سلسلة موجودات منفصلة عن بعضها البعض.

الجميع بمنزلة شجرة عظيمة امتدت أغصانها العملاقة لأنحاء الوجود، وربّما كانت هنالك مسافة تقدّر بملايين السنين الضوئية بين غصنين من أغصانها، أو حتّى بين بذورها، إلاّ أنّ هذه المسافة ليست دليلًا على انفصالها وتفككها، بل تعدّ من خصائص سعتها وعظمتها.

إنّ كلّ جزء في هذه الوحدة العظيمة دليلٌ على الكلّ، وكلّ فرع مرتبط بالآخر، وردود أفعالها مرتبطة مع بعضها؛ وكلّ واحدة قرينة على وجود الأُخرى، والجميع يسقى من جذرٍ واحد. وعلى هذا الأساس، فإنّ «كلّ عشق أصيل وفطري يحكي عن وجود معشوقٍ في الخارج وأنّه جذبة واندفاع نحوه»، و«العشق» الذي لا مكان لمعشوقه سوى في عالم الرؤيا هو «عشق مزيف»، وليس للزيف من مكان في عالم الطبيعة. والانحراف عن مسار الخلق فقط من شأنه استبدال الموجود المزيف بواقع أصيل.

على أيّة حال، فإنّ فطرة الإنسان تنادي بوضوح أنّ العدل

والسلام سيعمّان العالم في نهاية المطاف وينهار الظلم والجور، فهذه حاجة إنسانية مطلقة.

٢ - الانتظار المطلق للمنقذ

يبدو أنّ الجميع متفق على أنّ شعوب العالم كافّة تنتظر زعيمًا ثوريًا عظيمًا اصطلحت عليه باسم معين، إلاّ أنّهم يتفقون جميعًا على صفاته الكلية ومبادئ ثورته. وبناءً على ما تقدّم، فإنّ قضية الإيمان بظهور المنقذ والمصلح المطلق الذي يعالج أنين البشرية، ويضع حدًّا لمعاناتها، لا يقتصر على المسلمين أو بعض المذاهب والمدارس الشرقية؛ بل تفيد «الوثائق والأدلّة» أنّ هذه الفكرة قديمة ومتأصّلة لدى جميع شعوب الشرق والغرب، وإن تأكّدت هذه القضية لدى بعض الأديان كالديانة الإسلامية. وهذا دليل آخر وشهادة حيّة على كون هذه المسألة فطرية.

ونشير هنا بصورة مقتضبة إلى نماذج هذا الاعتقاد لدى الأُمم والشعوب من أجل غايتين؛ الأُولى: الالتفات إلى عمومية هذه المسألة، والأُخرى: الالتفات إلى المبادئ المشتركة بشأن مشاريع ذلك المصلح الكبير لدى جميع تلك الأقوام.

سادسًا:
الشعوب والمصلح العظيم

مشروع المصلح في كتب الزرادشتية:

١- ورد في كتاب «زند» بعد الصراع الأبدي بين الأخيار والأشرار: «آنذاك يكون النصر للأخيار، ويقضون على الأشرار... وما إن يتغلّب الأخيار حتّى تتحقق السعادة في العالم وينعم بنو آدم بالخير والرفاه».

٢- روى «جاماسب» في رسالة سفره عن زرادشت أنّه قال: «يخرج رجل من أرض تازيان... رجل عظيم الرأس والبدن وطويل الساق ويتجه إلى إيران بجيشه الكبير ودين جده فيملأ الأرض عدلًا».

نماذج هذا الاعتقاد في كتب الهند و«البراهمة»:

١- جاء في أحد الكتب الهندية «وشن جك»:

«ستعود الدنيا آخر الأمر إلى رجل يحبّ الله ومن خاصة عباده. واسمه مبارك وميمون».

٢- كما جاء في كتاب آخر اسمه «ديده»:
«سيظهر آخر الزمان بعد خراب الدنيا ملك هو إمام الخلق. واسمه منصور يستولي على جميع العالم ويلحقه بدينه».

٣- وورد في أحد كتب البراهمة «دداتك» وهو من الكتب المقدسة:
«سيظهر رجل الحق ويسيطر على مشرق العالم ومغربه ويهدي جميع الخلائق».

٤- وجاء في كتب الهنود «باتيكل»:
«إن انتهى النهار وتجدّدت الدنيا القديمة وأصبحت حية وظهر صاحب الملك؛ أحد أبناء إمامي العالم أحدهما ناموس آخر الزمان، والآخر يُدعى بشن واسم صاحب الملك «المرشد»، هو الملك حقًّا والخليفة الذي يلي الحكومة وله معجزات كثيرة».

٥- وورد في كتاب «باسك» من كتب الهنود:
«تؤول الدنيا إلى ملك عادل في آخر الزمان هو إمام الملائكة والجنّ والإنس؛ والحقّ معه، ويستخرج ما في البحار والجبال وينبئ عن السماء والأرض، ولم يرد الدنيا أعظم منه».

قبسات من كتب العهد القديم (التوراة وملحقاتها):

١- جاء في كتاب «مزامير داود» المزمور ٣٧:
«... لأنّه سينقطع الأشرار، وسيرث المتوكلون على الله

الأرض، سوف لن يكون هناك شرير بعد مدة قليلة، ستتأمل مكانه وليس فيه، أما الحكماء (الصالحون) فسيرثون الأرض».

٢- كما ورد في المزمور المذكور الجملة ٢٢:
«سيرث الأرض مباركو الرب وسينقطع ملعونوه».

٣- وجاء في الجملة ٢٩ من المزمور السابق:
«سيرث الصدّيقون الأرض ويسكنون فيها إلى الأبد».

٤- وورد في الفصل السابع من كتاب النبيّ «حبقوق»:
«... وإن تأخّر، فانتظره؛ لأنه سيأتي وسيتوقف، بل سيجمع حوله جميع الأُمم ويعدّهم جميعًا لنفسه».

٥- ونقرأ في كتاب «النبي أشعياي»، الفصل ١١ في بحث كلّه تشبيه:
«وستظهر نبتة من جذع يسي[١] وينتصب فرع من فروعها.
سيحكم الذليلون بالعدل والقسط، فالعدالة محور الحكم.
وستعيش الشاة إلى جانب الذئب...
والطفل الصغير سيكون الراعي...
وسوف لن يكون هنالك فساد وضرر في جميع أرضي المقدّسة...
لأنّ الأرض ستمتلئ من علم الله، كالمياه التي تملأ البحار».

---

(١) يسي بمعنى قوي اسم والد داود (نقلاً عن القاموس المقدس).

العلامات في كتب العهد الجديد (الأناجيل وملحقاتها):

١- جاء في الفصل ٢٤ من إنجيل «متّى»:
«حيث يأتي البرق من المشرق ويظهر في المغرب، هكذا سيكون قدوم ابن الإنسان... سيرون ابن الإنسان كيف سيقف بقدرته وجلال عظمته... وسيبعث بملائكته (أصحابه) وسيجمع هؤلاء أولياءَهم».

٢- وورد في الفصل الثاني عشر من إنجيل «لوقا»:
«اعقدوا أحزمتكم وأضيئوا مصابيحكم وكونوا كمن ينتظر سيّده، حتّى تفتحوا له الباب متى جاء ودقّ بابكم».

عقيدة الصينيين والمصريين وأمثالهم بهذا الشأن:

١- جاء في ص ٤٧ من كتاب «علامات الظهور» (تدوين أحد أصدقاء صادق هدايت):
«إنّ القسم الأعظم من المتون البهلوية المترجمة لدى «صادق» بشأن الظهور وعلامات الظهور، والواقع لو التفتنا إلى جميع المتون لديه لقلنا لكافّة هذه المتون صبغة دينية.

... موضوع الظهور وعلامات الظهور موضوع يحظى بأهمية خاصّة لدى جميع المذاهب العالمية... حسب قول «صادق»: بغضّ النظر عن العقيدة والإيمان التي تعدّ أساس هذه الأمنية، فإن كلّ فرد حريص على مصير البشرية وينشد تكاملها المعنوي، حين يصاب باليأس من كلّ شيء ويرى البشرية غافلة وتتجه نحو

الفساد والانحطاط وتتمرد على الله، ولا تمتثل أوامره رغم كلّ هذا التطور الفكري والعلمي المدهش، فإنّه يتوجه إلى الله بوحي من فطرته الذاتية ويسأله رفع الظلم والجور والفساد. ومن هنا، فقد عاش العباد على مرّ العصور والدهور انتظار المصلح العالمي ولا تقتصر هذه الرغبة على أتباع الديانات الكبرى كالزرادشتية واليهودية والمسيحية والإسلام؛ بل وردت في الكتب القديمة للصينيين وعقائد الهنود، والبلدان الإسكندنافية، حتّى لدى قدماء المصريين، بل حتّى أهل المكسيك وأمثال تلك الأُمم».

ومن الجدير ذكره أنّ كتاب «زند، وهو من يسن» وسائر الكتب الزرادشتية ومنها البابان الأخيران من رسالة جاماسب تشتمل على النبوءة الزرادشتية على لسان جاماسب الحكيم ب»كشتاسب» الملك آنذاك اعتنق الزرادشتية المتعلق بموعود آخر الزمان، ترجم من قبل صادق هدايت من البهلوية إلى الفارسية، ونشر من قبل حسن قائميان رفيق هدايت بعنوان «علامات الظهور».

قبسات من عقائد الغرب بهذا الشأن:

١- إنّ الاعتقاد بظهور المنقذ العظيم وفناء الظلم والجور عن الناس، وإقامة حكومة الحقّ والعدل، لا تقتصر على الشرقيين والمدارس الشرقية؛ بل هو اعتقاد عام وعالمي انعكست أبعاده في مبادئ الأقوام المختلفة، وكلّ ذلك يفيد هذه الحقيقة وهي أنّ لهذه العقيدة العريقة جذورًا في الفطرة البشرية وفي دعوة جميع الأنبياء.

ذكر في كتاب «إطلالة على الزعامة» ضمن بيان وجود انتظار ظهور منقذ عظيم لدى مختلف المجتمعات الغربيّة واستفادة بعض الأفراد من هذا الانتظار العام، أسماء خمسة أفراد من الأدعياء نهضوا من بريطانيا هم: «جيمس تايلور» و«يوحنا سوثكات»، و«ريتشارد برادرز»، و«جون نيكولستام» و«هنري جيمس برينس». كما نقل عن «برنارد باربر» عالم الاجتماع الأميركي في رسالته «نهضة المنقذ» وجود مثل هذا الاعتقاد حتّى لدى زنوج أميركا وقال:

«إنّ هذه العقيدة شائعة بين قبائل الزنوج الأميركيين... أنّه سيظهر يومًا ذلك الرجل ويدخلهم جنّة الأرض... وقد أحصى التأريخ الأميركي لما قبل سنة ١٨٩٠ أكثر من عشرين نوعًا من هذه النهضات».

ذكرنا سابقًا في بحثنا، بشأن كتاب «علامات الظهور»، أنّ آثار هذه العقيدة موجودة بين الشعوب الإسكندنافية والمكسيك وأمثالهم[١].

ويتبين ممّا ذكرنا - وسائر الشواهد والقرائن التي لم نوردها رعاية للاختصار - أنّه ليس هنالك منطقة معينة لهذا الانتظار، فهو انتظار عام وشامل، وعلى نطاق عالمي، وبالتالي شاهد على فطرية هذه العقيدة.

---

(١) استعنا في هذا البحث ببعض الكتب، «علامات الظهور» و«براعم الأمل» و«إطلالة على الزعامة».

وسنرى سعة كبيرة لهذه العقيدة في الأبحاث القادمة تحت عنوان ظهور «المهدي» في العقائد الإسلامية، مع كونها تشكل عقيدة أساسية.

كما سنرى كيف أسهم الإيمان بهذه الحقيقة الفطرية المؤيدة بالعقل في طرد غيوم اليأس وسُحُب الإحباط عن سماء روح الإنسان، وجند طاقاته وأعده لمستقبل مشرق وزاهر، لتكون القوى أعظم استعدادًا، والأفكار أكبر يقظة، والاستعدادات أشمل، والنهضات أسرع، والعشق أعمق، وكيف مهّد السبيل لمجتمع إنساني بمعنى الكلمة؛ المجتمع الذي تذوب فيه مفردات الظلم فتنطفئ جذوة ناره، والتمييز العنصري وما إلى ذلك من المصائب.

الفصل الثاني:
النهضة العالمية

نهضة أم إصلاحات تدريجية

كان البحث إلى حدّ الآن أنّ الإنسان ينظر بعين الأمل إلى مستقبل مشرق على ضوء نداء العقل وإلهام الفطرة، المستقبل الذي يفرق كثيرًا عن اليوم، والذي ستنعدم فيه السحب السوداء كافّة.

ولكن يرد هنا هذا السؤال: هل سيتمّ هذا التغيير من خلال الإصلاحات التدريجية أم بواسطة النهضة والثورة؟

أساسًا - وبصورة عامة - ليست هنالك فكرة واحدة لدى العلماء في السبيل الذي تتمّ من خلاله الإصلاحات الاجتماعية. فالبعض يقول بالإصلاحات التدريجية، وبالمقابل هناك البعض الآخر وهم الثوريون الذين لا يرون إمكانية حدوث أيّ تغيير جذري في أوضاع المجتمع البشري دون النهضة.

يعتقد هؤلاء أنّ التغيير الذي يصيب الطبيعة إنّما يقوم على أساس قفزة ونهضة، ولا جدوى من التغييرات «الكمية»، والتي تتخذ صيغة «كيفية»، وتنقلب ضدها لأدنى نهضة. وقد أورد أصحاب هذه الفكرة وفي التغييرات الاجتماعية كافّة عدّة دوافع وعناصر في كيفية النهضة وتغيير المجتمعات، تفتقر جميعها للدليل، ولا تنطبق على القضايا التأريخية ميادين.

توضيح ذلك:

الذي يبدو أقرب إلى الواقع أنّ درجات الفساد في المجتمعات متفاوتة؛ فالموضع الذي لم يستشر فيه الفساد، يمكن للإصلاحات التدريجية أن تكون أساس التغيير فيه. بينما لا جدوى من التغيير في المواضع التي تتسع فيها رقعة الفساد، سوى من خلال النهضة الشاملة ليمكنها التغلب على الإرباكات.

وكأنّ الأمر أشبه ببناء عظيم يُراد ترميمه بالتعمير التدريجي وإعادته إلى سابق جماله. أمّا حين يتحطم البناء من الأساس وتشرف أُسسه على التآكل، فليس هنالك من سبيل سوى هدمه من الأساس وإعادة بنائه.

ولدينا شواهد عدّة على صحّة هذا الاعتقاد:

١- توضع الإصلاحات التدريجية دائمًا على تلك الأُسس القديمة، ويتوقف تأثيرها على سلامة الأُسس. وبعبارة أُخرى، فإنّ النماذج والضوابط في «الإصلاحات» هي تلك النماذج والضوابط القديمة، وهي مجدية في المواضع التي تكون فيها

النماذج سالمة، وإلاّ ليست هنالك من ثمرة، ذلك أنّ الدار خاوية من الأساس. وهنا ينبغي البحث عن نماذج جديدة والتعامل مجددًا مع القضايا الأساسية باتجاه التغيير.

٢- غالبًا ما تنشأ الإصلاحات التدريجية من خلال الطرق السلمية، وتعتمد عادة على «المنطق» في أغلب المواقع، ويتوقف تأثيرها على الاستعداد الفكري للمجتمع، وإلاّ فلا بدّ من اللجوء إلى الثورة على أنّها تمثل منطق القوة. وإن كان للمنطق دوره البارز في التحولات الثورية، إلاّ أنّ الحرف الأوّل والأخير للقوة الثورية. فالاستعانة بالأساليب غير الثورية في المجتمعات التي تجذر فيها الفساد، تؤدّي إلى تحصن عناصر الفساد إزاء الإصلاحيين، والتسلح بالوسائل المتاحة لمواجهة أسلحة الإصلاح؛ بالضبط كالمكروب القوي الذي يتحصن تجاه الاستعمال التدريجي للدواء، ويواصل نشاطه، ولا يمكن القضاء عليه سوى بهجوم خاطف لذلك الدواء.

٣- تستحوذ العناصر الفاسدة المقتدرة المضادة للإصلاح في المجتمعات التي تجذّر فيها الفساد على المراكز الحساسة كافّة في المجتمع، وتستطيع هذه العناصر إحباط كلّ مشروع إصلاحي تدريجي بسهولة؛ إلاّ أن تُباغت ويقضى عليها بحركة ثورية قبل أن يأخذ حذرها وتتجمهر وتتجهز.

٤- لا يمكن الإبقاء على القوى الثورية والإصلاحية وديمومة فاعليتها وتحمسها لمدة طويلة، وما لم تستثمر طاقاتها في

الموقع المناسب فلربما تضيع جهودها على مرور الزمان وتفقد حيويتها؛ فتتاح الفرصة للعناصر المضادّة باختراق صفوفها بالتدريج. وعليه، فلا بدّ من الاستفادة القصوى حين ممارسة الإصلاحات الشاملة من هذه العناصر وبالسرعة الممكنة.

٥- يشير التاريخ أيضًا إلى أنّ طائفة من المجتمعات لم تنتظم من خلال الإصلاحات التدريجية، بل تمّ إصلاحها عن طريق الثورة والنهضة.

وقد اعتمد الأنبياء العظام وقادة الإصلاح الأُسلوب الثوري في مواجهتهم لمثل هذه المجتمعات، وقد استماتوا في ميادين الجهاد بعد أن جنّدوا كلّ قواهم وطاقاتهم في هذا المجال.

وخير مثال على هؤلاء الثوريين الأبطال أنبياء الله نوح، وموسى، وعيسى وإبراهيم، وفي مقدمتهم نبيّ الإسلام سلام الله عليهم جميعًا.

كما عرف بالثورية سائر العظام من الرجال والنساء الذين مارسوا مهمّة الإصلاح وغيّروا مسيرة مجتمعاتهم. وهذا بحدّ ذاته دليل حي على أنّ إصلاح مثل هذه المجتمعات لا يتمّ سوى من خلال الثورة.

ويبدو الأمر أكثر وضوحًا بالنسبة إلى ممارسة الإصلاح العام لأوضاع العالم والإطاحة بالنظام المعاصر القائم على أساس الظلم والجور، وإرساء قواعد نظام عادل خالٍ من كلّ هذه المفاسد.

فإذا كان الأمر كذلك، فأنّى للإصلاحات التدريجية أن تقوم بهذه المهمّة في ممارسة التغييرات الشاملة؟!

هنا لا بدّ من القول:

إذا أريد لعالمنا المعاصر المليء بالظلم والجور والفساد أن ينقذ من هاوية الفناء والعدم، فليس هنالك من سبيل سوى قيام الثورة الشاملة. الثورة على جميع المستويات:

الثورة على المستوى الفكري والثقافي والأخلاقي والاقتصادي والسياسي، وفي مجال القوانين والمشاريع، وإلاّ فليس هنالك سوى السقوط في النيران المحرقة لحرب عالمية شاملة.

الثورة المادية أم المعنوية؟

البحث الآخر الذي يتمّم البحث السابق: بالاستناد إلى الأدلة العديدة التي تبيّن مسيرة الحياة البشرية في خاتمة المطاف إلى العدل وانقشاع سحب الظلمة من سماء الحضارة البشرية، فإنّه يرد هذا السؤال: إنّ هذه الثورة الشاملة التي ستنفّذ هذا المشروع تحصل من خلال تكامل القوانين المادية أم ينبغي أن تحقّق ذلك الهدف بالاستعانة بالمصادر المعنوية؟

بعبارة أُخرى، هل يسع هذه الحياة الأحاديّة الجانب وتكاملها تحقيق الهدف المذكور، أم لا بدّ من التكامل الشامل والتامّ، بحيث يتم إحياء القيم والمثل الإنسانية، عبر تفعيل المسائل

الأخلاقية بشكل واسع، وإنعاش الإيمان والعاطفة، والسيطرة من خلال ذلك على طغيان الحياة المادية؟

يشير التمعن في الجذور الرئيسية للبؤس والشقاء والإرباك الراهن إلى أنّ تكامل هذا الوضع هو في الواقع تكامل التعاسة، ومواصلة هذا الطريق ستكون مواصلة الأزمات. وذلك بما يلي:

إنّ أعدل أساليب الحكم في عالمنا المعاصر هو أُسلوب الحكومة الديمقراطية (حكومة الشعب لنفسه بنفسه)، والذي لا يطالعنا منها في أغلب مناطق العالم سوى اسمها.

ولو افترضنا أنّ هذا النظام طُبِّقَ بمفهومه الواقعي في أنحاء العالم كافّة ، فإنّه سيخلّف العديد من المعضلات.

توضيح ذلك:

تفيد الدراسة الإجمالية أنّ في العالم أربعة أنواع من الحكومات هي:

١- الحكومة الاستبدادية (في صورتها الحقيقية) المراد حكومة استبداد فرد يعلم وضعه في الماضي والحاضر. ويمكن القول باختصار، إنّ كلّ بؤس وشقاء وعبودية وتخلّف أصاب الإنسان إنّما أفرزته هذه الحكومة المقيتة.

٢- الحكومة الاستبدادية (بلباس الديمقراطية) أي تلك الحكومة الفردية المستبدّة والجبّارة الطاغية التي تتشدق بالديمقراطية، وتحاول محاكاتها في إنشاء الحزب والمجلس المزيّف؛ الحزب

والمجلس الـذي تعد قائمة أعضائه سلفًا، وهكـذا سائر العناصر الذين يؤهَّلون للقيام بوظائفهم من خلال ظهورهم على مسرح الأحداث. طبعًا، يجلسون معًا خلف الكواليس، يشربون ويأكلون ويمرحون ويمزحون، وحين يظهرون يتّخذ أحدهم موقف المعارض والآخر الموافق، هـذا من التيار المحافظ وذلك من التيار المعتدل، ويفتعلون بعض الأزمات فيما بينهم بغية خداع العوام الذين لم تعد تنطلي عليهم هذه الألاعيب، بل يلجأون أحيانًا إلى بعض الحركات العنيفة لإكمال الخطة.

لم يكن لهذه الحكومة من وجود في التاريخ الماضي، وذلك لبساطة ووضوح الناس والحكّام، وربّما لم يكن يسع عقولهم عرض الاستبداد في إطار الديمقراطية.

فقد ظهرت هذه الحكومة في عصرنا؛ عصر النفاق وتغيير المواقف والثمرة المرّة التي ترتدي حلة اليوم، بينما تعود نواتها إلى الماضي، ولا همّ لهذه الحكومة سوى تأخير عملية إنقاذ الشعوب ممّا هي عليه وتحريرها من قيودها.

٣- الحكومة الاستبدادية الجماعية (دكتاتورية البروليتاريا) لم تكن هذه الحكومة بهذا المضمون في الماضي، وهي وليدة عصر اتساع حياة المكننة، وتقتصر على البلدان الشيوعية التي تتزعّم فيها البروليتاريا (طبقة العمال) دفة الحكم، وتحقق تطلعاتها في المجالات كافّة تحت راية الماركسية.

وعلى الرغم من أنّ الماركسيين هم الذين اختاروا عنوان

دكتاتورية البروليتاريا كشعار لحكومتهم، لكن وبغض النظر عن المفاهيم الكامنة في هذا العنوان لا بدّ من الوقوف على هذه القضية وهي:

هل طبقة البروليتاريا تحكم هذه المجتمعات، أم أعضاء اللجنة المركزية للحزب والأمين العام لهذا الحزب؛ الحزب الذي يفتقر إلى الشمولية، وتغيب فيه الانتخابات الحرّة، وليس فيه سمة من ديمقراطية. أما استبداد قادة الحكومة واللجوء إلى العنف ومصادرة حرية الآخرين، فليست بالأُمور الخافية على الآخرين.

ولو تأملنا التاريخ وما حفل به من حكّام مستبدين وطغاة، وحقب عانى فيها الناس من صنوف العذاب، لتقدم كلّ من استالين وخروشوف وماو قافلة أولئك الحكّام. صحيح أنّ زعماء هذه المجتمعات خطوا خطوات مؤثرة باتجاه توزيع الثروات، وصحيح أنّهم وضعوا حدًّا لعصور الأثرياء الخرافية، ولكن هل يمكن غضّ الطرف عن هذه الحقيقة الناصعة وهي أنّهم ينفقون المليارات من ثروات بلدانهم لترسيخ دعائم حكومتهم، ويفعلون دون وازع كلّ ما يروق لهم، ويسلبون شعوبهم حقّ إبداء الرأي والنقد والتظاهر والاحتجاج وأنواع الاستجواب كافّة.

٤- الحكومة الديمقراطية (في صورتها الحقيقية) يمكن إيجاز مفهوم هذه الحكومة التي تمثل أرقى أنواع الحكومات المعاصرة، والتي يتباهى بها أغلب القادة والزعماء، في

عبارة قصيرة وهي: يبدو أنّ الشعب بجميع طبقاته يستطيع ظاهرًا في ظلّ هذه الحكومة أن يتقدم بكلّ حرية إلى صناديق الاقتراع ويصوّت لصالح ممثليه، فيفوّض مصيره ومستقبله لسنوات عدّة - وفق ضوابط معينة - لهؤلاء الأفراد. ولهؤلاء الأفراد من خلال تبادل وجهات النظر والمشورة أن يسنوا بعض القوانين التي يعتقدون أنّها تتكفل بحفظ مصالح الآخرين.

وقد ينتخب رئيس السلطة التنفيذية من قبل هؤلاء الممثلين أحيانًا، وأحيانًا أُخرى يُنتخب مباشرة من قبل الشعب؛ ليكون رئيسًا للوزراء أو رئيسًا للجمهورية.

مثالب الحكومة الديمقراطية:

على الرغم من الامتيازات التي تطبع هذه الحكومة، إلاّ أنّ التعمّق فيها والتأمل يجعلنا نقف على صورتها المرعبة، والتي تناقض صورتها الظاهرية الجميلة، لما يلي:

١- الاستغلال الطبقي - الحصيلة الأُولى لهذه الحكومة، أي حكومة «الأكثرية» - بالنظر إلى أنّ الأقلية ليست عددًا قليلًا من الأفراد على الدوام وزهيدة؛ بحيث يمكن إهمالها في الحسابات الفئوية - أنّها تسمح بالاستغلال الجماعي، ويجيز لواحد وخمسين بالمئة من شعوب العالم فرض أفكارهم وتطلّعاتهم على تسعة وأربعين في المئة من سائر الناس؛ حيث تغيب مصالح وحقوق شريحة واسعة من الشعب بغية

حفظ منافع شريحة أُخرى، تمثّل الأكثرية، وقد لا تزيد سوى بنسبة اثنين أو واحد في المئة على الأقلية.
وهذه في الواقع ضربة مهلكة إلى العدالة والحرية في عالم البشرية، والتي تتمّ في ظلّ أرقى أشكال الحكومة.

٢- الأقلية في صيغة الأكثرية - الأسوأ من ذلك ما في هذه الحكومة التي تلبس فيها «الأقليات» ثوب «الأكثرية» وتفرض عليها آراءَها. فأصحاب «الثراء» و«الاقتدار» إنّما يغسلون أدمغة الأكثرية ويمهّدون الأجواء أمام تحقيق أطماعهم ومآربهم ليأتوا بحكومة لا تغطي سوى متطلبات ومصالح الأقلية المستكثرة من خلال سيطرتهم على وسائل الارتباطات، وإعدادهم لبعض الفئات، وتغذيتهم بأهدافهم ومشاريعهم وخططهم، واستحواذهم على وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والصحافية.
ومن هنا، فليس هنالك ما يدعو إلى الدهشة أن نرى في البلدان التي تدار من قبل هكذا حكومة، أن تكون الحكومات «عادة» ممثلة وراعية لمصالح البرجوازيين وكبار الرأسماليين (رغم وجود الانتخابات الحرة ظاهرًا والمشاركة العامّة للناس في التصويت). طبعًا إن استطاعت الأكثرية أن تُنحّي هذه الفئة بادئ الأمر عن السلطة، ومن ثمّ تجري الانتخابات، فربّما تتمكّن الأكثرية الحقيقية من زعامة الشعب، إلاّ أنّ هذا العمل يبدو محالًا ينبثق من الدور والتسلسل كما يصطلح على ذلك في الدين.

ولو استطعنا توجيه حكومة الأكثرية الواقعية للأقلية بنحو معين، فمن المسلّم أنّه ليس هنالك من توجيه لحكومة الأقلية المستغلة للأكثرية المستغلة.

٣- عدم التساوي في ظروف المساواة - لكلّ فرد في أية ظروف رأي في ظلّ هذا النظام الحكومي، أي:
هناك مساواة تامة بين العالم الفاضل والفرد الأُمّي الجاهل، وكذلك بين السياسي الحاذق والرصين والوطني، والفرد الساذج والخام، والإنسان العفيف الطاهر مع السارق الجاني. وهذا ظلم فاحش، ذلك لأنّ أحدهما يعدل نظيره ألف مرة في صنع المستقبل وتقرير المصير. صحيح إنّنا إن أردنا أن نميّز الأفراد نصطدم بفقدان المعيار والضابطة الواضحة، ولكن مهما كان الأمر فهذا نوع من العجز تختزنه طبيعة الحكومة الديمقراطية المادية الغربية.

٤- المتابعة بدل الزعامة - يرى الحكّام ووكلاء المجلس في هذا النظام أنفسهم ملزمين برعاية متطلبات الأكثرية (دون أي قيد أو شرط)، ذلك لحاجتهم إليهم في الحاضر والمستقبل، وإلاّ تعرّضت مواقعهم للخطر. وعليه، فالزعامة في هذا النوع من الحكومة تتخلّى عن موقعها للمتابعة، فلا يقتصر الأمر على المتابعة للفساد والظلم والانحراف والانحطاط الاجتماعي بكافة أشكاله، والذي يحظى برغبة الأكثرية، بل تتشدد وتستفحل كلّ هذه الأمراض.

وعلى هذا الضوء فلا غرابة أن نسمع على سبيل المثال بمصادقة المجلس البريطاني على «زواج المثل»، ويشرّعها كقانون؛ ذلك لأنّ لهؤلاء الأفراد ممثلًا أو عدّة ممثلين في البرلمان. ولك أن تتصور على هذا الأساس مدى بعد هذه الحكومة المثالية المادية عن روح المثالية؛ وذلك لأنّه:

أوّلًا: إنّ القوانين المادية على فرض أنّها مفيدة للضعفاء ومدعاة للعدالة تفتقر لأية ضمانة للتنفيذ؛ ذلك لأنه ليس هنالك من معنى وأهمية للعدالة في الوسط الذي تتعين فيه كافة القيم على ضوء المعايير المادية بالنسبة إلى الأقوياء الذين يرونها تستلزم إغماضهم عن الكثير من منافعهم وامكاناتهم المادية. وعليه، فالضعفاء وحدهم هم الذين يتحدّثون في هذه الأوساط عن العدالة والمساواة، لا الأقوياء. أما إن كان الكلام عن القيم المعنوية، فالعدالة ستكون مهمة للجميع، ذلك أنّهم ينالون بعض المثل المعنوية والفضائل، وإن تعرضت بعض مصالحهم للخطر بفعل تطبيق العدالة.

والنموذج الواضح على ذلك، المنظمات الدولية الواسعة التي ظهرت عقب الحرب العالمية الثانية. فهذه المنظمات التي تعتبر من أهم المراكز الساعية لضمان السلام العالمي، وينشط فيها ساسة العالم ومفكروه، ما زالت إلى حدّ الآن أُلعوبة بيد الدول الكبرى، أو لم تعد أكثر من صالة لعقد المؤتمرات والاجتماعات، والتي يسمح فيها للبلدان الصغيرة بالتحدّث لمدة وجيزة.

ثانيًا: تفيد الدراسات التاريخية والتجارب أنّ شعور الإنسان بالحاجة إلى المزيد لا يُلبّى أبدًا من خلال الطريق المادي؛ أي أنّ الإنسان لم يبلغ إلى حدّ الآن مرحلة ليقول أكتفي بهذا المقدار. فطلبات الإنسان ورغباته مفتوحة، بينما تمتاز الإمكانات المادية مهما ازدادت بالمحدودية، وليس من شأن هذه الإمكانات المحدودة تلبية تلك المتطلبات غير المحدودة، وهذا «التضادّ بين المتطلبات والإمكانات» هو الذي أفرز الحرب كونها من اللوازم الدائمة للحياة المادية.

لكن إن استعادت المعنويات والإيمان بالله والالتفات إلى القيم الإنسانية والأخلاقية والشعور بالمسؤولية إزاء ذلك المبدأ العظيم الذي يفوق الماديات وعالم المادة حيويته وفعاليته، فله أن يهذّب هذه الغريزة ويحدّ من جموحها، ويضعها في مسارها الصحيح، ويجلب الأمن والسلام بدلًا من الفوضى والحرب. وبعبارة أُخرى، فإنّه يمكن إشباع غريزة طلب المزيد عن طريق الأُمور المعنوية التي لا تعرف أية محدودية، آنذاك سيزول ذلك التضاد الذي يعدّ العنصر الرئيسي للحرب والظلم.

الفصل الثالث:
الاستعدادات الضرورية للحكومة العالمية

أولًا:
الاستعدادات العامة

لا بدّ أن نذعن بأنّ بلوغ تلك المرحلة التأريخية التي يجتمع فيها الناس كافّة تحت راية واحدة، وتزول فيها الأسلحة الفتّاكة، وتنعدم فيها الطبقات المستعمرة (بالفتح) والمستعمرة (بالكسر)، وتنتهي فيها النزاعات والألاعيب السياسية والعسكرية للدول العظمى، ويتخلص العالم من اسم «العظمى» وكابوس قدرتها الجهنمية، وتتحوّل فيها المنافسة الاقتصادية البغيضة والهدّامة إلى تعاون وتكاتف بشري من أجل حياة أجمل ومعيشة أرغد.

كلّ هذه الأُمور تبدو مبكرة وتتطلّب استعدادًا عامًّا، مهما كنّا متفائلين ونشعر بالأمل. لكن بالنظر إلى التطورات والتغيرات التي تحدث بسرعة في العصر الأخير، فلا ينبغي أن نراها بعيدة أيضًا لتصبح رؤيا خيالية.

على أيّة حال، هنالك أربعة استعدادات ينبغي توفرها لقيام هذه الحكومة:

١ - الاستعداد الفكري والثقافي

أي ينبغي أن يبلغ المستوى الفكري للناس درجة تجعلهم يدركون بأنّ قضيّة «العرق» أو «المناطق الجغرافية المختلفة» ليست بالأُمور الجديرة بالاهتمام في حياتهم، وليس للخلافات على أساس اللون واللغة والأرض أن تفرّق بين أبناء البشر، ويجب أن تموت إلى الأبد العصبيات القبلية والفئوية. ولا بدّ من طرح الفكرة المقيتة القائلة بالجنس الأفضل، وليس لهذه الحدود المصطنعة والأسلاك الشائكة والجدران الأثرية كجدار الصين أن تبعد الناس بعضهم عن بعضهم الآخر. بل ينبغي النظر إليها كضياء الشمس والنسيم المنعش وسحب السماء وسائر النعم التي لا تعرف معنى لهذه الحدود والأعراق وتغذي الجميع، وأن يعتبروا العالم بأسره دولة صغيرة.

ولو أمعنا النظر لرأينا أنّ هذا التفكير قد تبلور وتكامل لدى مفكّري العالم ومثقفيه، بل أبعد من ذلك فقد جرى الحديث عن اللغة العالمية الواحدة، وقد اقترح لذلك لغة معينة توحّد الجميع وقد طبعت كتب عدّة بهذه اللغة.

٢ - الاستعداد الاجتماعي

لا بدّ أن يتّعظ الناس من الظلم والجور والأنظمة السائدة،

ويشعروا بمرارة هذه الحياة المادية، واليأس التام من أنّ مثل هذه الحياة الأحادية النزعة يمكنها في المستقبل حل المشاكل القائمة.

ينبغي أن يدرك العالم أنّ البشارة في القرن ١٨ و١٩م بشأن المستقبل الزاهر للحضارة البشرية في ظلّ التطور الآلي، لم تكن في الواقع سوى حلمًا أو سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء.

فقد اتّسعت رقعة الإرباكات المادية وعدم الأمن والاستقرار، إلى جانب غياب حالة الرفاع والرخاء. ولم تزُل القوانين التي تبدو رصينة والظلم والاستعمار والاستغلال والتفاوت الطبقي الفاحش فحسب، بل استفحل الفساد السابق ليتّخذ أشكالًا وأنماطًا مرعبة.

إنّ الوقوف على عمق خطورة الوضع الموجود إنما تستلزم بادئ الأمر حالة التفكير، ثمّ الترديد، وبالتالي اليأس من الوضع العالميّ القائم والاستعداد للنهضة الشاملة على الأصعدة كافّة وعلى ضوء القيم الجديدة. فليس هنالك من سبيل لبلوغ تلك المرحلة دون هذا الأمر.

٣ - الاستعدادات التقنية

خلافًا لما يراه البعض من أنّ بلوغ مرحلة التكامل الاجتماعي وعالم مفعم بالأمن والعدل والسلام يقترن ضرورة بالقضاء على التقنية المعاصرة، بل الواقع أنّ هذه التكنولوجيا المتطورة ليست

فقط لا تحول دون قيام حكومة العدل العالمية فحسب، بل ربّما يستحيل من دونها تحقيق تلك الحكومة. فلا بدّ من وجود سلسلة من الإمكانات والوسائل غاية في التطور بغية إيجاد مثل ذلك النظام العالمي ومن ثمّ السيطرة عليه، والتمكن من الطوف في أرجائه خلال فترة زمنية قياسية، وإيصال المعلومات إلى مختلف مناطقه البعيدة.

فلو عادت الحياة الصناعية لوضعها القديم لتطلّب إيصال رسالة من منطقة معينة في هذا العالم إلى أُخرى مدّة سنة، فكيف يمكن إرساء قواعد الحكومة العالمية وبسط العدل والقسط في أرجائها كافّة ؟ أم كيف يمكن تحقيق هذا الهدف إن تطلب القضاء على حفنة من الأشرار - الذين يفترض وجودهم حتّى في مثل هذه الحكومة - مدة زمانية طويلة لكي تقف الحكومة على أوضاعهم والمبادرة إلى القضاء عليهم؟

وزبدة الكلام، فإنّ مثل هذه الحكومة وبغية إشاعة الأمن وبسط العدل في ربوع العالم تحتاج إلى العلم بالمناطق كافّة والسيطرة التامة لتتمكن من تربية المجتمع المتأهب للإصلاح، إلى جانب الإبقاء على وعيه وحيويته، والتجهز لكلّ فرد يحاول المساس بنظام تلك الحكومة. ولعلّ من يفكّر عكس ذلك كأنّه لا يفكّر في مفهوم الحكومة العالمية ويقارنها بالحكومات المتداولة المحدودة.

ويبدو أنّ العالم الذي يريد أن يبلغ هذه المرحلة ينبغي أن

تتسع فيه رقعة وسائل التربية والتعليم، وتتصف بالشمولية؛ بحيث تستند أغلب مشاريعها إلى التثقيف الذاتي، وهذا بدوره يتطلب مراكز ثقافية فاعلة ووسائل ارتباط عامة وصحافة وكتب ضخمة، والتي لا تتيسر جميعًا دون وفرة الآلات الصناعية المتطورة.

أجل، يمكن قيام مثل هذا النظام دون الوسائل الصناعية المتطورة إن كانت هناك معجزة في هذه العملية، ولكن هل تتمّ إدارة شؤون المجتمع البشري على ضوء المعجزة؟

إنّ المعجزة عبارة عن استثناء منطقي في النظام الجاري للطبيعة بغية إثبات حقانية دين سماوي، وليست لإدارة أُمور الأُمّة، وعليه فلا بدّ أن تتمّ هذه الإدارة وفق القوانين الطبيعية.

سنتناول هذا الأمر في تفصيل أكبر في المباحث القادمة.

ثانيًا:
الانتظار

مفهوم الانتظار:

يطلق «الانتظار» أو «التطلع إلى المستقبل» على الإنسان الذي يسأم الوضع القائم، ويسعى إلى وضع أفضل. على سبيل المثال، المريض الذي ينتظر الشفاء، أو الأب الذي ينتظر قدوم ولده من السفر، إنّما يئنان من المرض والفراق، ويسعيان إلى نيل وضع أحسن.

وكما أنّ التاجر الذي يعيش الامتعاض من السوق المتقلّبة ويترقب جلاء الأزمة الاقتصادية، ينطوي على هاتين الحالتين: «عدم التكيف مع الوضع القائم» و«السعي إلى وضع أحسن».

وعليه، فإنّ مسألة انتظار حكومة الحقّ والعدل وقيام المصلح العالمي

«المهدي» تتركّب في الواقع من عنصرين: عنصر «النفي» وعنصر «الإثبات». وعنصر النفي هو عدم التكيف مع الوضع الموجود، وعنصر الإثبات هو السعي إلى الوضع الأفضل.

الانتظار في عمق الفطرة الإنسانية:

خلافًا لاعتقاد البعض بأنّ المحور الرئيسي لانتظار ظهور المصلح المطلق يكمن في الإحباطات والإرباكات على مستوى الأفكار، فإنّ عشق هذا الأمر يرتبط بأعماق الإنسان بصورة مركّزة أحيانًا وخفيفة أحيانًا أُخرى. بعبارة أُخرى، إنّ الإنسان يتعامل بطريقين - العقل والعاطفة - مع هذه المسألة، ويسمع نغمة هذا الظهور عن طريق لسانين هما «العقل والفطرة».

وبعبارة أوضح، فإنّ الإيمان بظهور المصلح العالمي جانب من «عشق المعرفة» و«عشق الجمال» و«عشق الخير والفضيلة» - ثلاثة أبعاد من أبعاد الروح الإنسانية الأربعة - حيث تؤول صنوف العشق هذه إلى الذبول والموت دون ذلك الظهور.

ولعلّ هذا الكلام يحتاج إلى توضيح أكثر، ذلك إنّنا نعلم أنّ «عشق التكامل» شعلة خالدة تضيء أنحاء وجود الإنسان، فهو يريد العلم بالمزيد، ويرى المزيد من الجمال، وينفتح على الكثير من الفضائل. والخلاصة، يسعى إلى توفير كلّ ما يقوده إلى الرقيّ والازدهار.

لا يمكن ربط ظهور هذه الدوافع بالعوامل الاجتماعية والنفسية. وعلى الرغم من أنّ لهذه العوامل دورًا مهمًّا في إضعافها أو إثارتها،

غير أنّ وجودها هو جزء من الأبعاد الأصلية لروح الإنسان وتركيبته النفسية، بدليل عدم افتقار أية أمّة لمثل هذه الدوافع. وزبدة القول، إنّ حبّ الإنسان للرقي والتكامل وانفتاحه على العلم والمعرفة والجمال والخير والفضيلة والعدل تمثّل رغبة أصيلة ودائمة خالدة، وانتظاره لظهور مصلح عالميّ مطلق هو ذروة هذه الرغبة والحبّ. وهو موضوع ينبغي التأمل فيه.

كيف لا يكون للإنسان مثل هذا الانتظار وشعلة حبّ التكامل تتوقّد في جميع أحشائه؟ وهل يتكامل المجتمع البشري دون ذلك؟

وبناءً على هذا، فإنّ هذا الشعور يساور باطن كلّ من لم يعِش حالة الإحباط والانكسار في حياته، هذا من جانب. ومن جانب آخر، كما تساعد الإنسان أعضاؤه في السمو والتكامل، ولا يسعنا أن نظفر بعضو يغيب دوره بصورة مطلقة في هذه الحركة التكاملية، فإنّ خصائص الإنسان النفسية كذلك؛ أي لكلّ منها دور مهم في تقدّم مشاريعه الأصيلة. مثلًا «الخوف من العوامل الخطيرة» الكامن في وجود كلّ إنسان درع يحفظه من تلك المخاطر.

و«الغضب» الذي يستشعره الإنسان حين يرى خطرًا يهدّد مصالحه، وسيلة لمضاعفة القدرة الدفاعية وتعبئة طاقاته البدنية والروحية كافّة بغية إنقاذ مصالحه من الخطر. وعليه، فإن حبّ التكامل وحبّ السلام والعدل وسيلة لبلوغ هذا الهدف العظيم، وبمثابة ماكنة قوية تحرك عجلات وجود الإنسان في هذا الطريق، وتساعده في الوصول إلى عالم مليء بالعدل والسلام.

من جانب آخر، فإنّه لا يمكن للأحاسيس والأجهزة في جسم الإنسان وروحه أن لا تنسجم مع عالم الوجود؛ لأنّ عالم الوجود برمته وحدة واحدة متصلة، ولا يمكن لوجودنا أن ينفصل عن سائر العالم. ويمكننا أن نستنتج من هذا الاتصال أنّ كلّ حبّ وعشق أصيل في جودنا دليل على وجود «معشوقه» و«هدفه» في عالم الوجود، وهذا العشق وسيلة تقربنا منه؛ أي إنّ عطشنا ورغبتنا بالماء فإن ذلك دليلٌ على وجود «الماء». وقد أودع عالم الخليقة العطش في وجودنا.

وإن ملنا للجنس الآخر، فإنّ ذلك دليلٌ على وجود هذا الجنس في الخارج، كما أنّ عشقنا للجمال والمعرفة دليل على وجود العشق والجمال في عالم الوجود.

ونخلص من هذا إلى أنّ انتظار الناس للمصلح العالمي الذي يملأ العالم بالعدل والسلام، دليل على إمكانية وعملية ذروة هذا التكامل في المجتمع البشري. فعشقه وانتظاره في أعماق أرواحنا وأنفسنا. وعمومية هذا الاعتقاد في المذاهب والمدارس كافّة علامة أُخرى على أصالته وواقعيته؛ لأنّ الشيء إن كان وليد الشرائط المعينة والمحدودة، لا يمكنه أن يحظى بهذه الشمولية. فليست هنالك من شمولية سوى للقضايا الفطرية؛ وكلّ هذه الأُمور دليل على أنّ هذه النغمات تعزف في روح الإنسان عن طريق لسان عاطفته وفطرته في أنّ الأمر سيؤول إلى إرساء العدل والسلام في حكومة العدل العالمية من جانب المصلح العالمي.

فلسفة الانتظار:

لعلّ هذا السؤال يطرح نفسه: ما النتيجة المتوخاة اليوم من الحديث عن مستقبل العالم البشري؟

لدينا اليوم آلاف المشاكل والأزمات وينبغي لنا التفكير في معالجتها والتغلب عليها، فما علاقتنا بالمستقبل؟

إنّ الغد سيأتي خيرًا كان أم شرًا، ومن سيبقى سيشهد ذلك، ومن يموت فالله يرحمه. على كلّ حال، هذه قضية بعيدة وليس لها من آثار إيجابية على حياتنا الراهنة.

نرى أنّ هذه كلمات من ينظر بسذاجة وسطحية للأحداث، ويتصوّر انفصال اليوم عن الأمس والغد، ويعتقد بأنّ العالم يتركب من وحدات متباعدة ومتناثرة ومتفرقة.

ولكن بالنظر إلى أنّ جذور «أحداث اليوم» تمتدّ إلى الأمس، وأنّ علينا أن نصنع الغد من اليوم، وأنّ للالتفات إلى مستقبل «مظلم» أو «مشرق» انعكاسًا آنيًّا على حياتنا المعاصرة ومواقفنا إزاء الحوادث، فإنّها تتضح ضرورة دراستنا للماضي والمستقبل من أجل اليوم والوقت الحاضر، وسنرى عمّا قريب فاعلية هذا الانتظار العظيم.

إلاّ أنّ العجيب في الأمر هو أنّ بعض الكتّاب لم يتنكروا للجانب الإيجابي لهذه القضية فحسب، بل صرّحوا بأنّ لمثل هذا الانتظار جوانبه السلبية في شلّ القدرات الاجتماعية والقضاء عليها. والأعجب من ذلك ما يراه البعض الآخر من أنّ الإيمان بمستقبل

مشرق انعكاسٌ للحرمان الذي تعيشه الطبقة المسحوقة، والذي يتخذ عادة صبغة دينية.

ولكن لا يمكن إنكار هذه الحقيقة في أنّ هنالك بعض ضيّقي الأُفق الذين يسعون لاستغلال قضية الانتظار، وقد تخلوا عن جميع مسؤولياتهم بذريعة الانتظار، والاكتفاء بها على نطاق اللسان. وأرى من الضروري - لإزالة إساءة الفهم من الجانبين - أن أُطلع الإخوة القرّاء على الرسالة التي كتبتها سابقًا بشأن هذا الموضوع.

الأحكام غير المدروسة:

رغم ما يعتقده بعض المستشرقين بأنّ الإيمان بالمصلح العالمي «ردّ فعل» لوضع المسلمين المأساوي طيلة الحقب التاريخية المظلمة، ورغم تأثر بعض الباحثين الشرقيين والمسلمين بأفكار الغرب وإثارتهم لهذه القضية؛ حتّى أنّهم يصرون على أنّ الإيمان بالمهدي عقيدة مستوردة من عقائد اليهود والنصارى، وعلى الرغم من سعي جماعة من علماء الاجتماع من المدرسة المادية لبلورة قضية انتظار المهدي كدليل على أفكارهم، في أنّ جذور هذه العقيدة اقتصادية تهدف إلى تخدير أفكار الطبقة الكادحة والمحرومة، رغم كلّ ذلك، لا بدّ من الالتفات إلى أنّ لهذه العقيدة جذورًا فطرية راسخة تمتدّ إلى أعماق عواطف الإنسان إلى جانب تجذرها في المصادر الإسلامية المهمة.

ولعلّ الدراسات المقتضبة لهؤلاء الباحثين من جانب، والرغبة

بالتوجيه المادي لكلّ فكر وعقيدة دينية من جانب آخر، هي التي أفرزت مثل هذه الأفكار.

والغريب في الأمر أنّ بعض الباحثين الغربيين مثل «مارغلي يوت» قد أنكر الأحاديث الإسلامية الواردة في المهدي وقال: «كيفما فسروا هذه الأحاديث فليس هنالك من دليل مقنع في أنّ نبي الإسلام قال بضرورة وحتمية ظهور المهدي لإحياء الإسلام وتحقيق كماله، إلاّ أنّ نيران الحروب الأهلية بين أبناء الجيل الواحد بعد وفاة النبي واضطراب العالم الإسلامي إثر الاختلاف، أدّى إلى اقتباس فكرة ظهور المنقذ من اليهود أو النصارى الذين ينتظرون عودة المسيح وظهوره».

ولا أدري ما هي الكتب التي رآها «مارغلي يوت» من المصادر الإسلامية بهذا الخصوص، وكيف لم يعثر في تفاسيرها على دليل يقنعه. والحال وردت أحاديث صريحة عدّة في مصادر الفريقين بشأن الظهور، حتّى بلغت حدّ التواتر. أم كيف لا يكون لكلّ علماء الإسلام والمحققين دون استثناء - سوى النادر منهم كابن خلدون الذي أعرب عن ترديده في أحاديث المهدي في مقدمته التاريخية - من نقاش في صدور هذه الأحاديث عن النبي ﷺ واقتصرت كلماتهم على القضايا الفرعية والجزئية، بينما لم يقتنع «مارغلي يوت»؟

ينبغي أن يجيب بنفسه عن هذا السؤال.

ويقول البعض الآخر: «إنّنا ننظر إلى نتائج هذا الانتظار، ولا

يعنينا العمل به ودوافعه، والتي تؤدي إلى احتمال المعاناة والصبر إزاء الإرباكات والاستسلام إلى الظلم والجور والتهرب من المسؤولية. إنّنا ننظر إلى هذا في أنّ هذا الانتظار يقذف بالطبقات المحرومة في عالم الخيال، ويجعلهم يغفلون عمّا يدور من حولهم، ويدعوهم إلى الكسل والهروب من الالتزامات الاجتماعية. وبعبارة أُخرى، فهو من الناحية الفردية عامل للركود والسكون، ومن الناحية الاجتماعية هو وسيلة لإخماد حركات الشعوب ضدّ الاستعمار، وكيف كان فآثاره السلبية واضحة».

إلاّ أننا نعتقد أنّ الباحث الواعي الذي لا يريد إصدار الأحكام جزافًا، بل يرى نفسه موظّفًا بالتعرف على «الدوافع والنتائج» عن قرب وعدم الاكتفاء بالأحكام التي تصدر بصورة اعتباطية. والآن دعونا نتناول بحياد دوافع الانتظار ونتائجه، لنرى هل كان عامل ظهوره الإحباطات أم سلسلة من الواقعيات الفطرية والعقلائية؟ وهل نتائجه بناءة وإيجابية أم هدّامة وسلبية؟

آثار الانتظار البناءة:

هل الإيمان بمثل هذا الظهور يجعل الإنسان غافلًا عن أوضاعه القائمة ومستسلمًا للظروف والشرائط كافّة؟

أم إنّ هذه العقيدة تستبطن الدعوة إلى القيام وبناء الفرد والمجتمع؟

هل تدعو إلى الحركة أم السكون؟

هل تؤدي إلى تحمل المسؤولية أم الهروب منها؟

بالتالي هي أفيون أم منبه؟

يبدو من الضروري الالتفات إلى نقطة مهمة قبل الاجابة عن هذه الأسئلة، وهي أنّ أعظم المقررات وأسمى المفاهيم إن وقعت بأيدي أفراد ليسوا بأكفاء أو انتهازيين فلربما يمسخونها إلى درجة؛ بحيث تعطي نتائج مخالفة لأهدافها الأصلية، وتتحرك خلاف مسيرتها المرسومة، وهنالك الكثير من هذه النماذج، ومسألة الانتظار كما سنرى واحدة من هذه النماذج.

على كلّ حال، وبغية التحرز من الخطأ في الحسابات في مثل هذه المباحث، لا بدّ من انتهال الماء من عينه الصافية بعيدًا عن المياه الملوّثة التي ربّما تفسده. ومن هنا، فإنّنا نتجه في بحث الانتظار صوب المتون الإسلامية الأصيلة، ونسلّط الضوء على مختلف الروايات الواردة بشأن مسألة «الانتظار»؛ لنقف على طبيعة الهدف الرئيسي.

نسلط الضوء هنا على هذه الروايات:

سئل الإمام الصادق عليه السلام عمن يقول بولاية الأئمّة وينتظر حكومتهم الحقّ ويموت على ذلك؟ قال الإمام عليه السلام: «هو بمنزلة من كان مع القائم في فسطاطه - ثمّ سكت هنيئة - ثمّ قال: هو كمن كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

وقد ورد هذا المضمون في عدة روايات بعبارات مختلفة:

ففي بعضها «بمنزلة الضارب بسيفه في سبيل الله»، وفي البعض الآخر «كمن قارع مع رسول الله ﷺ بسيفه». وفي رواية «بمنزلة من كان قاعدًا تحت لواء القائم». وفي رواية أُخرى «بمنزلة المجاهد بين يدي رسول الله». وفي رواية «بمنزلة من استشهد مع رسول الله ﷺ».

فالتشبيهات الواردة في هذه الروايات بشأن انتظار ظهور المهدي عجل الله فرجه الشريف عميقة المعنى، وتكشف عن هذه الحقيقة وهي أنّ هنالك نوعًا من الارتباط والتشابه بين مسألة «الانتظار» و«الجهاد» ومواجهة الأعداء.

كما صرّحت بعض الروايات بأنّ مثل هذا الانتظار يعدّ أعظم عبادة. حيث ورد مثل هذا المضمون في أحاديث النبي ﷺ وروايات الإمام علي عليه السلام. فقد قال ﷺ: «أفضل أعمال أمّتي انتظار الفرج من الله عزَّ وجلَّ».

كما ورد عنه ﷺ أنّه قال: «أفضل العبادة انتظار الفرج».

ويكشف هذا الحديث عن أهميّة الانتظار، سواء الفرج بمعناه الواسع والشامل، أو مفهومه الخاصّ، أي انتظار ظهور المصلح العالمي.

وتشير كلّ هذه العبارات إلى أنّ انتظار تلك النهضة إنّما اقتران على الدوام بجهاد واسع ومقاومة تامة.

ولو استند الاعتقاد وانتظار حكومة العدل للمهدي عجل الله فرجه الشريف إلى قاعدة

رصينة لأفرز نوعين من الأعمال العظيمة؛ لأنّ الاعتقاد السطحي قد لا يتجاوز أثره اللسان، بينما الاعتقاد العملي يقتضي دائمًا الآثار العملية. والنوعان هما: الامتناع عن أشكال التعاون كافّة، والركون إلى عوامل الظلم والفساد إلى درجة مقاومتها من جانب، ومن جانب آخر تزكية النفس وتوظيف الاستعدادات الجسمية والروحية والمادية والمعنوية بغية تبلور تلك الحكومة العالمية.

ولو تأملنا ذلك، لرأينا كلا العملين بناءً ومدعاة للحركة والمعرفة والوعي واليقظة.

وهكذا يفهم معنى الروايات الواردة في فضل المنتظرين من خلال الالتفات إلى مفهوم الانتظار الواقعي.

كما نفهم بعض الروايات التي صورت المنتظر الحقيقي وكأنّه في فسطاط المهدي أو تحت لوائه، أو كمن جاهد بين يدي رسول الله ﷺ بسيفه. أوليست هذه المراحل المختلفة والدرجات المتفاوتة في الجهاد من أجل تحقيق العدل والحقّ إنّما تتناسب مع استعدادات الأفراد ودرجات انتظارهم؟ أي كما يتفاوت مقدار تضحية المجاهدين في سبيل الله ودورهم، فإنّ انتظارهم واستعدادهم هو الآخر مختلف وعلى درجات.

طبعًا كلاهما جهاد ويحتاج إلى استعداد وتزكية. فالفرد الذي يكون في فسطاط زعيم تلك الحكومة، والذي يمثل مركز القيادة والإمرة العسكرية لجميع العالم، لا يمكن أن يكون شخصًا غافلًا وجاهلًا، فليس كلّ فرد يلج ذلك الفساط، سوى من استعدّ له.

كما ينبغي أن ينطوي من حمل السلاح وقاتل إلى جانب ذلك الزعيم كلّ من يقف بوجه حكومة العدل والسلام، على استعداد روحي غزير وتأهب فكري وعسكري كبير.

الانتظار يعني التأهب التام:

إن كنت ظالمًا فكيف يسعني انتظار من يضع سيفه في أعناق الظلمة؟ وإن كنت ملوثًا وفاسدًا فكيف أنتظر نهضة أوّل شرارتها تطيح بالملوثين المردة؟

والجيش الذي ينتظر الجهاد الأكبر إنما يرفع القدرة القتالية لأفراده وينفخ فيهم روح الثورة ويصلح فيهم كلّ ضعف.

وكيفية الانتظار تتناسب دائمًا مع الهدف الذي يقف وراءه، فانتظار قدوم مسافر عادي، وانتظار عودة صديق عزيز، وانتظار حلول فصل جني الثمار من الأشجار، وانتظار حلول فصل افتتاح المدارس.

فكلّ نوع من هذه الانتظارات ممزوج بنوع من الاستعداد. فلا بدّ من إعداد الدار في أحدها وتوفير وسائل الضيافة، بينما يستلزم الآخر إعداد المنجل والحاصودة، كما يلزم الأخير القلم والكتاب والقرطاس وثياب المدرسة، وما شاكل ذلك. ولكم أن تتصوروا الآن ذلك الذي ينتظر قيام المصلح العالمي، فهو ينتظر في الواقع نهضة وثورة تعدّ أوسع وأعظم جميع النهضات البشرية طيلة التاريخ. النهضة التي تختلف عمّا سبقها من النهضات

الإصلاحية، فهي لا تنطوي على أية صبغة إقليمية، كما لا تختصّ بأي جانب من جوانب الحياة المختلفة؛ بل إضافة إلى كونها عامة، فهي تشمل كافة جوانب الحياة البشرية، فهي نهضة سياسية وثقافية واقتصادية وأخلاقية.

طبعًا، لسنا بصدد الدليل على تحقّق هذه النهضة، ونوكل ذلك إلى بحث آخر؛ ذلك لأنّ هدفنا في هذا البحث الاقتصار على نتائج وآثار هذه العقيدة وذلك الانتظار. وهل ينطوي هذا الانتظار على فكرة التخدير كما يزعم أصحاب المدارس المادية، أم إنّه انتظار بناء وإصلاحي يدعو إلى الانطلاق والحركة؟ ذكرنا سابقًا أنّ «الانتظار» يتألّف من عنصرين: «نفي» و«إثبات»، الامتعاض من الوضع الموجود والرغبة في وضع أفضل. ونضيف هنا إنّ لكلّ نهضة وحركة محورية بُعدين: بُعدًا سلبيًا وبُعدًا إيجابيًا.

فالبعد الأوّل لهذه النهضة يتمثل في القضاء على عوامل الفساد والانحطاط، وتطهير المجتمع من دنس العصاة. وما إن تنتهي هذه المرحلة حتّى يأتي دور البعد الإيجابي، أي إشاعة عوامل الإصلاح. كما أشرنا سابقًا إلى تركيب مفهومي «الانتظار» و«النهضة العالمية»؛ أي إنّ الآثار التالية إنما تتجلّى في المنتظرين الواقعيين (لا مجرّد ادّعاء الانتظار كذبًا):

١ - التزكية الفردية

إنّ حكومة المهدي العالمية تتطلّب قبل كلّ شيء العناصر الإنسانية على صعيد القيم والمثل؛ لتتمكن من النهوض بأعباء

الإصلاحات الكبيرة في العالم؛ وهذا ما يقتضي بادئ الأمر الارتقاء بالمستوى الفكري والمعرفي، والاستعداد الروحي والفكري بغية التعاضد لتطبيق ذلك المشروع العظيم. فقصر النظر وضيق الأُفق والضحالة الفكرية والحسد والفرقة، وبالتالي أشكال النفاق كافّة والتشتت لا تنسجم مع مكانة المنتظر الحقيقي.

ولعلّ القضية المهمّة تكمن هنا في أنّ المنتظر الواقعي لذلك المشروع العملاق لا يمكنه أن يتخذ موقفًا متفرجًا، فهو جندي باسل في جبهة الإصلاح.

فالإيمان بنتائج النهضة ومصيرها لا تسمح له بأن يكون في الجبهة المقابلة، كما أنّ التحاقه بجبهة الإصلاح يتطلب منه قدرًا كافيًا من الأعمال الصالحة والانطواء على الشجاعة واليقظة التامة.

فكيف لي إن كنت ظالمًا متمردًا أن أنتظر نهضة تستهدفني؟ وإن كنت فاسدًا ومنحرفًا فأنّى لي بانتظار قيام نظام لا مكان فيه للأفراد الفاسدين والمنحرفين؟ أولا يكفي هذا الانتظار في تنقية روحي وتهذيب فكري من الزلل والدنس؟ والجندي الذي يتطلع إلى جهاد التحرير إنّما يعيش قطعًا حالة التأهب القصوى، والسلام الذي ينبغي له حمله في هذه المعركة إنّما يهدف إلى إصلاح الأسلحة السائدة، ويقوم ببناء المواضع المحكمة، كما يرفع معنويات رفاقه ويفجّر في نفوسهم عشق المواجهة، وإلاّ فلا يسعه الانتظار. وإن زعم ذلك فهو كاذب، فانتظار المصلح

العالمي يعني التأهب الفكري والأخلاقي والمادي والمعنوي التامّ من أجل إصلاح العالم بأجمعه. ولك أن تقف على أهميّة مثل هذا التأهب. فإصلاح كلّ ما على الأرض ووضع حدّ للظلم ليس بالعمل الهيّن، والاستعداد لهذا الهدف العظيم ينبغي أن يتناسب معه، أي لا بدّ أن يناسبه سعة وعمقًا.

وعليه، فإنّ تحقيق مثل هذه النهضة يتطلّب رجالًا أشدّاء من ذوي القوة والطهر وسعة الأُفق وبعد النظر والاستعداد التام، كما أنّ التزكية اللازمة لتحقق هذا الهدف تستلزم توظيف وتفعيل البرامج الأخلاقية والفكرية والاجتماعية، وهذا هو معنى الانتظار الواقعي، فهل يسع فرد أن يزعم بأنّ هذا الانتظار ليس بنّاءً؟!

٢- التكافل الاجتماعي

إلى جانب الإصلاح الذاتي، فإنّ وظيفة المنتظر الحقيقي تحتّم عليه إصلاح الآخرين؛ ذلك لأنّ المشروع العظيم والثقيل الذي ينتظره ليس بمشروع فردي، بل مشروع يختزن عناصر التغيير كافّة. وعليه، ينبغي أن تتمّ الأنشطة والفعاليات فيه بصيغة جماعية، ولا بدّ أن تتظافر جميع الجهود والمساعي، وأن يتناسب عمقها وشموليتها مع عظمة مشروع النهضة العالمية المنتظرة. ليس لأي فرد أن يتجاهل الآخرين في ميدان المواجهة الشاملة، وعليه أن يسعى لمعالجة نقاط الضعف أينما وجدت، وتقوية مواطن الضعف، ذلك لعدم إمكانية تطبيق ذلك المشروع دون المساهمة الفاعلة للجميع.

وعليه، فإن المنتظر الحقيقي يشعر بتكليفه في السعي إلى إصلاح الآخرين فضلًا عن إصلاح نفسه. وهذا هو الأثر البنّاء الآخر من آثار انتظار قيام المصلح العالمي، وهذه هي فلسفة كلّ تلك الفضائل والامتيازات الواردة بشأن المنتظرين.

٣ - عدم الانصهار في بوتقة الفساد

إن عمّ الفساد فإنّه يشمل أكثريّة الناس، وهنا يشعر الطاهرون من الأفراد بأنّهم بلغوا موضعًا مغلقًا، وهو الموضع الذي يفرزه اليأس من الإصلاح. وربّما يعتقد البعض بأنّ الفرصة قد مضت ولم يعد هنالك من أمل في الإصلاح، ومن العبث ببذل الجهد في هذا المجال. ومن شأن هذا اليأس والإحباط أن يدفع بهؤلاء الأفراد تدريجيًا إلى الفساد والانسجام مع الوسط الملوّث؛ بحيث لا يسعه الإبقاء على صلاحه تجاه الأكثرية الفاسدة، وبالتالي فإنّ عدم الانسجام والجماعة يوجب فضيحته.

وبالطبع، فإنّ العنصر الوحيد الذي يبعث فيهم روح الأمل، ويدعوهم إلى المواجهة وضبط النفس، ويحول دون انصهارهم في بوتقة الفساد، يتمثل بالأمل في الإصلاح النهائي. وهنا طبعًا يشعرون بضرورة السعي لحفظ صلاحهم وصلاح الآخرين. ولعلّ هذا هو السرّ في عدّ اليأس من رحمة الله من الذنوب الكبيرة ومن أخبث الكبائر؛ حيث لا يرى الفرد الذي يشعر باليأس من ضرورة لأن يتدارك ما فرط منه، أو على الأقل الكفّ عن مواصلة معاصيه، ومنطقه في ذلك: «لقد أوغلت في المعصية وفاتني

الندم والتوبة ولم تعد أمامي سوى نار جهنّم، فهل هناك شيء أخشاه كي أصدّ عن هذا الطريق».

أمّا إن فتحت له نافذة الأمل، فيشعر بتحول في حياته يدعوه إلى الأمل بعفو الله ورحمته، والأمل بتغيير الوضع القائم؛ الأمر الذي يعدوه إلى الكفّ عن المعصية والعودة إلى الذات والطريق القويم.

ومن هنا يعدّ الأمل من العناصر التربوية المهمة في معالجة أوضاع الفرد الفاسد؛ كما لا يسع الفرد الصالح حفظ نفسه في الوسط الفاسد دون الشعور بهذا الأمل.

والنتيجة هي أنّ انتظار ظهور المصلح مدعاة لمضاعفة الأمل بظهوره مهما اتسعت رقعة الفساد، والذي يلعب دورًا مهمًا في بلورة العقيدة والاندفاع إلى العمل، إلى جانب تحصين المنتظر من أمواج الفساد.

وهنا يشعرون بقرب بلوغ الهدف، فيزداد سعيهم، ويتواصل عزمهم في الوقوف بوجه الفساد والانحراف.

ونستنتج من الأبحاث السابقة أنّ الانتظار الممسوخ والمشوّه هو الذي ينطوي على عنصر التخدير؛ حيث حرفه بعض المخالفين، بينما مسخه بعض الموافقين. أمّا إن طبق في المجتمع بصورته الحقيقية الناصعة فهو عامل مهم على مستوى الأمل والحركة والتربية والتزكية.

ولعلّ من بين الأدلة الواضحة التي تؤيد هذا الموضوع ما روي عن المعصوم عليه السلام بشأن الآية الشريفة: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾[١] أنّه قال: «هو القائم وأصحابه».

وجاء في رواية أُخرى: «نزلت في المهدي»، والحال قد وصف المهدي وأصحابه في هذه الآية بهذا الوصف: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وعليه، يتعذر تحقق هذه النهضة العالمية دون إيمان راسخ يطرد كلّ ضعف وعجز وهوان، ودون عمل صالح يمهد السبيل من أجل إصلاح العالم، وينبغي لمن ينتظر أن يسعى لأن يرفع من مستوى معرفته وإيمانه وينشط في إصلاح نفسه وأعماله. وهؤلاء فقط من يسعهم التبشير بتلك الحياة في ظلّ حكومته، لا الظلمة والفجرة، ولا أُولئك البعيدون عن الإيمان والعمل الصالح، ولا الأفراد الجبناء الذين جعلهم ضعف إيمانهم يخشون خيالهم. ولا الضعفاء والكسالى والعاطلون الذين قبعوا هنا وهناك، يتفرجون على الوسط الفاسد دون أن ينبسوا ببنت شفة، ولم يكلفوا أنفسهم عناء أية حركة ومقاومة.

نعم هذا هو معنى الانتظار الحقيقي!

---

(١) سورة النور، الآية ٥٥.

الفصل الرابع:
المصلح العالمي العظيم في المصادر الإسلامية

أولًا:
صفات الزعيم العالمي

سلطنا الضوء في الأبحاث السابقة على ظهور النهضة العالمية الكبرى التي تهدف إلى اجتثاث جذور الظلم والفساد من خلال رؤية شاملة، وتوصلنا إلى إمكانية التكهّن بتحقق مثل هذه النهضة على ضوء منطق العقل وما ترشد إليه الفطرة.

لكن ينبغي الالتفات إلى أنّ الأدلّة العقلية تقتصر على عرض المشروع الكلي بهذا الخصوص، ويتعذر عليها تعيين تفاصيل هذا المشروع، ومن سيكون زعيم هذه النهضة.

والذي نعلمه أنّ زعامة هذه النهضة - التي تعدّ أعظم حدث في تاريخ البشرية وأشمل نهضة عالمية - لشخص يتمتع بالخصائص التالية:

١- العلم التام والرؤية العميقة الشاملة.

٢- النظرة الصائبة وسعة الأُفق الفريدة التي تسع عالم البشرية.

٣- امتلاك المشاريع الثورية الناجعة في المجالات كافّة.

٤- الشجاعة والهمة الخارقة.

٥- الورع والتقوى التي تتناسب وسعة الأهداف.

٦- الأخذ بنظر الاعتبار أبعاد الحياة كافّة دون الاقتصار على البعد المادي.

٧- الروح السامية التي تسمو على الفئوية، وضيق النظر والمصالح الشخصية، وتتجاوز حدود العادات والتقاليد والمدارس الفكرية السائدة.

كما ينبغي أن يتحلّى جيش هذه النهضة بتعاليم عظيمة تمكنه من تفعيل ذلك المشروع الضخم. وليس في هذا الجيش من مكان للجهال وقصار النظر وضيقي الأُفق والجبناء وضعيفي الهمة والعصاة والعناصر غير الثورية.

ونتجه الآن صوب المصادر الإسلامية بشأن هذا الظهور للمصلح العظيم؛ ذلك لأنّ دينًا كالدين الإسلامي لم يتضمن الخزين المطلوب بهذا الشأن، إلى جانب الخوض في التفاصيل.

ومن الجدير ذكره أنّ كلّ ما ورد في المصادر الإسلامية بهذا الشأن ينسجم تمامًا وما بلغناه عن طريق «العقل والفطرة». ولهذا الانسجام والاتفاق تأثيران: إنّه يرسخ إيماننا بأحكام العقل من جانب، ويضاعف من تفاؤلنا بأصالة التعاليم الإسلامية من جانب آخر.

ثانيًا:
المصلح العالمي في القرآن

القرآن - بصفته أهمّ مصدر إسلامي - يشتمل في هذا المجال كسائر المجالات على بحث كلي وأُصولي، دون الخوض في التفاصيل. وبعبارة أُخرى، فإنّ القرآن يتابع ما كنا عليه من أدلة عقلية وإلهامات فطرية، أي يخبر عن تحقق حكومة العدل العالمية في ظلّ الإيمان.

وإليك طائفة من الآيات التي تعرضت لهذا الموضوع:

١- نقرأ في الآيتين ١٠٥ - ١٠٦ من سورة الأنبياء:
﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان ١٠٥ و ١٠٦.

ونسلط الضوء هنا على معاني بعض الكلمات.

«أرض»: تطلق على الكرة الأرضية وتشمل كافة أنحاء العالم، إلاّ أن تقوم قرينة خاصة على غير ذلك.

«إرث»: لغويًا ما يقع في يد الشخص دون معاملة ومبادلة، ويطلق في القرآن الكريم على بعض الموارد على غلبة الصالحين للطالحين والسيطرة على إمكاناتهم.

«زبور»: تعني في الأصل كلّ كتاب، لكنها أطلقت عادة على كتاب «داود» الذي عبّر عنه في العهد القديم ب»المزامير»، وهو مجموعة من المناجاة والأدعية والوصايا لنبي الله داود. كما يحتمل أن يكون المراد بالزبور جميع الكتب السماوية السابقة (قبل القرآن).

«ذكر»: تعني في الأصل كلّ مصدر للتذكير، لكنها فسرت في الآية بمعنى توراة موسى عليه السلام بدليل أنّها وردت قبل الزبور، وفسرت أيضًا بأنّها إشارة إلى القرآن الكريم، حيث وردت هذه المفردة في آياته: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وعليه فمعنى «من بعد» هو إضافة إلى.

«صالح»: معروف، وحين ترد بصورة مطلقة تعني الصلاح في جميع الأمور من قبيل الكفاءة العلمية والأخلاقية، والصلاح من حيث الإيمان والتقوى والعلم والإدارة.

---

(١) سورة التكوير، الآية ٢٧.

فعليه يكون معنى الآية على هذا الأساس:

لقد كتبنا في الزبور بالإضافة إلى القرآن الكريم (أو التوراة) أنّ الأرض ستؤول إلى الصالحين من عباد الله؛ أولئك الذين ينطلقون في مسار العبودية.

وذكر هذا الموضوع في الزبور - إن كان بمعنى جميع الكتب السماوية السابقة - دليل على أنّ هذا الموضوع أصل ثابت في كلّ تلك الكتب.

وإن كان المراد منه كتاب داود، فلعلّ ذلك لسعة حكومة داود الرامية لتطبيق الحقّ والعدل وضمان مصالح الناس، وإن كانت حكومة إقليمية وليست عالمية، لكن بشّر الزبور بحكومة عالمية شاملة قائمة على أساس الحرية والأمن والعدل تنتظر العالم بأسره. أي إنّ الناس إن بلغوا تلك المرحلة من الصلاح وأصبحوا مصداقًا حيًّا للعباد الصالحين، فإنّهم سيرثون الأرض، سيرثون الحكومة المادية والحكومة المعنوية.

وقد تضمنت بعض الروايات الواردة في تفسير الآية المذكورة عبارات أوضح في هذا المجال. ومن ذلك ما رواه صاحب تفسير «مجمع البيان» في ذيل الآية أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال: «هم أصحاب المهدي في آخر الزمان».

ومن الجدير بالذكر أنّه وردت الإشارة إلى هذا الموضوع بعبارات عدّة في «مزامير داود» ومنها المزمور ٣٧:

«فسينقطع الأشرار ويرث الأرض المتوكلون على الله، وسوف لن يبقى شرير، ستتأمل مكانه وليس فيه وسيرث الحكماء الأرض».

كما جاء في المزمور ٣٧ عبارات أخرى:

«... سيرث الأرض الذي يباركهم الرب وسينقطع الملعونون. سيرث الصديقون الأرض وإلى الأبد»(١).

وبالطبع، فإنّ كلمة «الصالحون» الواردة في القرآن هي كلمة جامعة تشمل «الحكماء» «والصديقين» و«المتوكلين» و«المباركين».

وكما ذكرنا، فإنّ المستفاد من الآية: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ﴾ هو أنّ الهدف النهائي للصالحين ليس الحكومة، بل هي وسيلة لبلوغ ذلك الهدف، أي تكامل الإنسان في الجوانب كافّة؛ لأنّ البلاغ ما يبلغهم هدفهم.

الاستخلاف في الأرض:

٢ - نقرأ في الآية ٥٥ من سورة النور:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي

---

(١) أوردنا العبارات من ترجمة التوراة عام ١٨٧٨ من قبل مجمع ترجمة الكتب المقدسة باللغات الأجنبية في لندن.

ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

فقد تضمنت الآية ثلاثة وعود صريحة للذين آمنوا وعملوا الصالحات.

ونعلم أنّ لكلّ وعدًا ثلاثة أركان:

الذي يعد هنا هو الله، والموعود ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي المؤمنين الصالحين. والمواد الواردة في الوعود الثلاثة هي:

أ- الاستخلاف في الأرض، أي حكومة الحقّ والعدل.

ب- تمكين الدين، أي نفوذ المعنويات وحكومة القوانين الشرعية في جوانب الحياة كافّة.

ج- تبديل الخوف بالأمن: إزالة كافة عناصر الخوف وعدم الأمن واستبدالها بالأمن التام والاستقرار الكامل.

والمراد من «تمكين الدين» كما يفهم من سائر استعمالات هذه المفردة رسوخ التعاليم الدينية في جميع شؤون الحياة، لا من قبيل ألفاظ السلام والحرية وحقوق الإنسان التي يحمل لواءها اليوم المدافعون المزيفون، ولا تتجاوز حناجرهم، بينما لا وجود لها في الخارج؛ وكأنّها ألفاظ خيالية لا يمكن نيلها إلاّ في الأحلام وعالم الخيال.

آنـذاك سـوف لـن تكـون التـعاليـم الإسـلامـيـة بصيغة بعض القوالب الصورية الجافة والألفاظ الخاوية، بل ستكون نظرية الحياة السائدة في كلّ مكان.

آنـذاك ستكون المسؤولية واليقظة عامة شاملة، وسيحول اتساعها دون استغلالها من قبل بعض الأفراد.

وسوف لن تستطيع حينها المنافع الشخصية أن تحول دون القضاء الصحيح، لا على غرار ما يحصل اليوم من قبل بعض الساحقين لحقوق الإنسان، حين يرتقون منصة المؤتمرات العالمية ويتحدثون بحماس عن هذه الحقوق والحريات وهم يرون عدم كفاية حتّى المواثيق الدولية الواردة بهذا الشأن - والذين لا يلتزمون في الواقع بأي من بنودها - فتتعالى الأيدي بالتصفيق من جانب زعماء ما يسمى بحقوق الإنسان، ولا غرو فهم معًا ولا يستطيعون ضمان مصالحهم دون أن يسلكوا هذا الأُسلوب.

الاستقرار والأمن آنذاك لا يمزج بالخوف، فهو ليس كالأمن الذي نراه في بعض بقاع العالم والذي يفرزه الخوف من الأسلحة الفتاكة. وهل هذا أمن أم رعب؟ فهذا الأمن يفرزه الخوف العظيم من عواقب الحروب الوخيمة، إنّه ليس بأمن حقيقي.

ونتيجة هـذه الـوعـود الإلهـيـة الثـلاثة تمهيد السبيل لتزكية الإنسان وتكامله على مستوى المفاهيم الإنسانية والعبودية لله وهدم الأصنام بأشكالها كافّة: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾.

لا بأس هنا أن نتطرق إلى بعض أقوال المفسرين وما ذكروه من سبب لنزول هذه الآية:

يرى بعض المفسرين أنّ الآية نزلت حين هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة.

فقد برزت نهضة جديدة هزّت أركان ذلك المجتمع المليء بالخرافات والأساطير والجهل والظلم والتمييز العنصري، ممّا أثارت الطرف الآخر للمعارضة. وعلى الرغم من قلة عدد الأصحاب، إلاّ أنّهم عرفوا بالصمود والتضحية، وإنّ حجم المعارضة كان عريضًا واسعًا، وقد تصاعدت حدّة الصراع؛ بحيث كان المسلمون يعيشون على الدوام حالة التأهب القصوى، فلا يفارقون أسلحتهم حتّى عند نومهم، وينهضون صباحًا ليتقلدوا تلك الأسلحة الثقيلة.

وبالطبع، فإنّ استمرار هذا الوضع كان يزعجهم، كيف يسعهم النوم بهذه التجهيزات والأسلحة، وأي نوم هذا الذي يحلمون به والعدو متربص بهم؟

كانوا يتمنون أحيانًا أن يستريحوا ليلة من ذلك العناء دون أن يكون من العدو خطرًا يهدّدهم، كما يأملون بإقامة الصلاة دون أن يباغتهم العدو، فيعبدون الله بكلّ حرية ودون خوف، ويقضون على الأصنام ويعيشون بأمان في كنف حكومة العدل الإلهي.

ومن هنا، كان يسأل بعضهم البعض هل سيأتي ذلك اليوم؟! وهنا نزلت الآية، وحملت البشارة بتحقق ذلك الوعد وقدوم

ذلك اليوم، وقد رأينا كيف حلّ ذلك اليوم حين سيطر المسلمون بزعامة النبي ﷺ على الجزيرة العربية.

ويبدو سبب النزول هذا منسجمًا مع الآية، لكن لعلمنا بسائر أسباب نزول مختلف الآيات القرآنية، فإنّه لا يسعنا حصر مفاهيم الآيات في أسباب النزول، بل سبب النزول يعدّ أحد مصاديق الآية.

ولعلّ الاقتصار بالآية على سبب النزول من قبيل الأسلحة التي تعدها للقتال، وما إن يتوقف ذلك القتال حتّى نطرحها جانبًا، وإن كانت باهظة التكاليف وصالحة للاستعمال.

طبعًا، شهد أواخر عصر النبي ﷺ عملية جانب من المفهوم الشامل لهذه الآية، إلاّ أن تطبيق ذلك المفهوم بأجمعه، والاستخلاف في الأرض، لم يطبق إلى حدّ الآن وما زال العالم ينتظره.

نعم، تبشر الآية الشريفة جميع المؤمنين الحقيقيين بالحكومة العالمية التي تكون من نصيب الصالحين، وتطوي جميع الصفحات السوداء التي خلّفتها عصبة من الأنانيين والمستكبرين الذين تلاعبون في مقدّرات الإنسانية.

ومن هنا، ورد في بعض الروايات أنّ الآية واردة في قيام المهدي الموعود. فقد روى الطبرسي في تفسيره «مجمع البيان» عن الإمام السجاد عليه السلام أنّه قال: «هم والله شيعتنا أهل البيت يفعل الله ذلك بهم على يد رجل منا هو مهدي هذه الأُمّة».

ثمّ ذكر مثل هذا المضمون عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، وأضافا أنّ الآية مطلقة وتشمل خلافة جميع الأرض، وحيث لم يتحقق هذا الوعد الإلهي فلا بدّ من انتظاره.

كما وردت روايات عدّة في تفسير «البرهان» عن الإمامين الصادق والباقر عليهما السلام في أنّ الآية إشارة إلى قيام القائم.

ومن الجدير بالذكر أنّه بالنظر إلى كلمة «منكم»، فإنّ هناك أقلية مؤمنة صالحة تمارس النهضة العالمية حين تتوفر ظروفها، فتبلغ بها شاطئ الأمان، وتتغلب على جميع المصاعب والمطبات التي تعترض سبيل السفينة.

٣ - نقرأ في الآية ٣٣ من سورة التوبة:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

لا بدّ من الرجوع إلى الآية السابقة للوقوف على معنى هذه الآية:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[١].

يتضح من هذه الآية أنّ إرادة الله تعلقت بتكامل نور الإسلام، وسيكون تكامله حين ينشر لواءه على أنحاء العالم كافّة.

---

(١) سورة التوبة، الآية ٣٢.

ومن ثمّ، أوضح هذه الحقيقة في الآية المذكورة:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

وقد تكرر هذا الوعد مع فارق طفيف في الآية ٢٨ من سورة الفتح:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾.

وأخيرًا جاء هذا الوعد للمرة الثالثة في الآية ٩ من سورة الصف بالعبارة التي وردت في سورة التوبة:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾.

ولعلّنا ندرك أهمية هذا الوعد الإلهي من هذه الآيات القرآنية، إلاّ أنّ المهم هو اتضاح مفهوم العبارة «ليظهره»:

أوّلًا: يرجع الضمير «هاء» إلى النبي ﷺ أو «دين الحقّ»؟

على ضوء الاحتمال الأوّل المفهوم غلبة النبي لجميع الأديان، بينما مفهومها غلبة الدين الإسلامي على أساس الاحتمال الثاني.

لكن يبدو على أساس قواعد اللغة أنّ الضمير يعود إلى «دين الحقّ» كونه الأقرب؛ وإن لم يكن الفارق بينهما كبيرًا. أضف إلى ذلك، فإنّ انتصار دين على سائر الأديان أنسب تعبيرًا من انتصار شخص على سائر الأديان.

ثانيًا: (وهـذا هـو المهم) ما المراد هنا بالظهور؟ لا شك أنّ الظهور هنا لا يعني البروز والوضوح، بل يعني الغلبة. جاء في كتاب القاموس - أحد المصادر اللغوية المعروفة - ظهر به وعليه: غلبه. كما جاء في مفردات الراغب: ظهر عليه غلبه. وكما وردت بهذا المعنى في آيات عدّة من سور القرآن كسورة المؤمن والكهف والتوبة:

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1].

﴿يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ...﴾[2].

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُواْ إِذًا أَبَدًا﴾[3].

لكن ما المراد بغلبة دين لسائر الأديان؟

ذكر المفسّرون ثلاثة آراء:

١- الغلبة المنطقية؛ أي بمقارنة الإسلام بسائر الأديان الممزوجة غالبًا بالخرافات تظهر غلبة المنطق المستدلّ على سائر المناطق.

يعتقد أصحاب هذا الرأي أنّه كلما قارنّا التوحيد الإسلامي

---

(١) سورة التوبة، الآية ٨.

(٢) سورة غافر، الآية ٢٩.

(٣) سورة الكهف، الآية ٢٠.

الخالص مع سائر أنواع التوحيد المشوبة بالشرك أو الشرك الخالص، فإنّه يتضح منطق أفضلية الإسلام على سائر الأديان، وكذلك سائر المباحث التي اكتسبت عملية هذا الوعد الإلهي، حتّى أنّ مقارنة شعار الأذان بفضله شعار محرّك، بشعار الناقوس وعدم شعارية أغلب الأديان يكشف عن هذه الغلبة المنطقية.

٢- الغلبة العملية والغلبة الخارجية على سائر الأديان، غاية الأمر ضمن مقارنة إقليمية لا عالمية وعامة.

فقد تحققت أيضًا حيث تغلّب الإسلام في عهد النبي ﷺ على شبه الجزيرة العربية، ومن ثمّ على منطقة عظيمة من العالم، حتّى خضع لنفوذ الإسلام أتباع الديانات الأُخرى في تلك المناطق الممتدة من جدار الصين - بل ما وراء جدار الصين - حتّى شواطئ المحيط الأطلسي، وقد ظلّ الإسلام متجذرًا في تلك المناطق حتّى بعد اضمحلال الدولة الإسلامية هناك.

٣- الغلبة الخارجية والعملية على مستوى العالم وجميع ما على الأرض، والتي تشمل الغلبة الثقافية والاقتصادية والسياسية، وهو التفسير الذي قال به بعض مفسري العامة فضلًا عن مفسري الشيعة.

قطعًا لم يصبح هذا الوعد عمليًا إلى حدّ الآن، ولا ينطبق سوى على الحكومة العالمية للمهدي الموعود عليه السلام، وهي الحكومة التي يعمّ الحقّ والعدل فيها كلّ مكان ويتغلب فيها هذا

الدين على ضوء القياس العالمي على سائر الأديان. ولدينا بعض القرائن التي تفيد ترجيح التفسير الثالث على سائر التفاسير؛ لما يلي:

أوّلًا: الغلبة المستفادة من كلمة «الظهور» ظاهرة في الغلبة الحسية والعينية والخارجية، لا الغلبة الذهنية والفكرية، ولذلك لم يرد «الظهور» بمعنى الغلبة الذهنية في أيّ من الموارد القرآنية المذكورة، بل لوعدنا إلى الآيات السابقة وأمعنا النظر فيها لرأيناها وردت بمعنى الغلبة العينية والخارجية.

ثانيًا: ذكر كلمة «كله» بعنوان تأكيد يشير إلى عدم وجود البعد الإقليمي للغلبة، بل هي عامة شاملة لجميع الأديان، وهذا لا يمكن سوى من خلال شمولية الإسلام للعالم.

ثالثًا: الروايات التي وردت في تفسير الآية تقوّي التفسير الثالث، مثل:

١- روى العياشي بإسناده عن عمران بن ميثم، عن عباية أنّ أمير المؤمنين عليه السلام حين تلا الآية «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ...»، سأل أصحابه: «أظهر ذلك؟» قالوا: «بلى». قال: «كلا، فوالذي نفسي بيده حتّى لا يبقى قرية إلاّ وينادى فيها بشهادة أن لا إله إلاّ الله بكرة وعشيا»[١].

---

(١) مجمع البيان، ذيل الآية ٩ سورة الصف.

٢- وقال الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ ذلك عند خروج المهدي من آل محمّد فلا يبقى أحد إلاّ أقر بمحمّد»[١].

٣- قال المقداد بن الأسود: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله كلمة الإسلام»[٢].

كما وردت روايات عدّة تفسر الآية بهذا المضمون.

كانت هذه طائفة من الآيات القرآنية التي تؤكد العدل والسلام العالمي والإيمان بالتوحيد والإسلام في أرجاء العالم كافّة.

---

(١) تفسير البرهان، ج٢، ص١٢١.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية ٣٣ سورة التوبة.

ثالثًا:
المصلح العالمي في مصادر العامة

لا بدّ من الالتفات إلى أمرين قبل كلّ شيء.

١- يتساءل البعض ما الحاجة إلى الروايات ولدينا القرآن؟

طالما بيّن القرآن كلّ شيء «فيه تبيان لكلّ شيء»، فما المانع من أن نلتحق بمن قال: «حسبنا كتاب الله»؟ خاصة أنّنا نسمع أنّ هناك بعض الروايات والأحاديث الموضوعة بين سائر الأحاديث الصحيحة، وهذا ما يؤدي إلى عدم اعتبارها جميعًا.

لكن بالنظر إلى أنّنا مسلمون، والمسلم المتمسّك بالقرآن لا يمكنه تجاوز الأحاديث الإسلامية الواردة من طرقها الصحيحة، وذلك لأنّه:

أوّلًا: إنّ من أنكر السنّة فقد أنكر القرآن، حيث صرّح القرآن بشأن النبيّ ﷺ

في أنّ كلامه حجّة، وأنّه مفترض الطاعة فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ...﴾[١].

وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا ... ﴾[٢] وقال: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾[٣].

وهكذا سائر الآيات التي ترى وجوب طاعة أوامر النبي ﷺ بصفتها أوامر الله.

ثانيًا: إنّ القرآن يحتوي على القوانين الكلية للإسلام، وإنْ غضضنا الطرف عن السنّة فإنّه سيفقد صبغته العملية، وستبقى الكليات الذهنية التي لا يمكن تنفيذها؛ ذلك لأنّ السنّة بيّنت جميع الجزئيات والمقررات العملية والتنفيذية لتلك القوانين الكلية.

وعلى الرغم من منع البعض من تدوين أحاديث النبي ﷺ بعد وفاته بغية عدم اختلاطها بالقرآن، لكن سرعان ما وقفوا على ضعف هذا النمط من التفكير؛ بحيث تندرس السنّة مع مرور الزمان حتّى ينتهي الأمر إلى فقدان الإسلام لجانبه العملي والتنفيذي، ومن هنا تركوا تلك النظرية الفاشلة وعمدوا إلى تدوين الحديث والرواية.

ثالثًا: صحيح أنّ يد الوضاعين امتدت إلى الأحاديث الإسلامية وقد شوهتها لمختلف الدوافع والأسباب، غير أنّ ذلك لا يعني

---

(١) سورة الحشر، الآية ٧.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

(٣) سورة النساء، الآية ٨٠.

عدم وجود بعض الضوابط في تمييز الأحاديث الصحيحة من الموضوعة، ومن ذلك علم الرجال والحديث والدراية.

٢ - رجل ثوري لا سياسي مادي:

إنّ الأدلّة التي ذكرت - كالآيات الواردة في هذا الخصوص - عن طريق العقل أو الفطرة، والتي تشير إلى تحقق نهضة إصلاحية شاملة في العالم، لم تتطرق إلى شخص معين، بل اقتصرت على مباحث كلية. ولكن ممّا لا شك فيه أنّ هذه النهضة تتطلب زعيمًا كسائر النهضات، زعيمًا مقتدرًا وعالمًا ذا أفق بعيد ونظرة ثاقبة وعالمية، فهل يمكن أن ينبثق هذا الزعيم كسائر زعماء العالم المعاصر من المجتمعات المادية؟ أي كالزعماء الذين يكون هدفهم بالدرجة الأُولى حفظ مناصبهم، ومن ثمّ كلّ ما من شأنه حفظ مكانتهم، وتعظيمهم إزاء المدارس السياسية والاقتصادية المختلفة بمستوى التأثير في حفظ مكانتهم؛ وقد تكون ذروة أهدافهم في المرحلة اللاحقة الانطلاق نحو تحقيق مصالح شعوبهم، وإن كان ذلك على حساب ذبح الشعوب الأُخرى.

وقد أثبتت حرب فيتنام التي استغرقت عشرين سنة وقد خلفت ملايين القتلى والجرحى وهدم ملايين الأحياء السكنية وملايين الأفراد المشوهين ومليارات الأموال والثروات، أنّ الرأسمالية المعاصرة مستعدة للقتال من أجل حفظ منافعها، بل أحيانًا لا لشيء - بل أبعد من ذلك من أجل سلسلة من الأوهام الفارغة - وقد تغيّر خلال هذه الفترة عدد من هؤلاء الزعماء العظام، غير أنّهم ساروا جميعًا على نهج أسلافهم ليثبتوا أنّ ذلك

العمل لم يكن نزعة فردية أو جماعية معيّنة، بل هو مبدأ ثابت من مبادئ وخصائص هذه الأنظمة.

إنّهم ينشدون الحرية كهدف سامٍ، لكنهم يقتصرون بها على أنفسهم، وقد يتبنون شعارها أحيانًا من أجل الآخرين، ولكن ما إن تتعارض مع مصالحهم حتّى يتنصلوا عنها.

إنّهم يتفقون بغية ضمان منافعهم، وهذا هو مبدؤهم المقدس المتفق عليه، وكأنّهم تعاقدوا معًا على الدوام على ذلك الأمر.

كما استغلوا حرية «حقوق الإنسان» و«حرية الشعوب في تقرير مصيرها» لضرب منافسيهم، ولذلك قد تنتكس تلك الحرية إن كان الكلام عن حلفائهم، فيتخلون عن تلك الشعارات حفظًا لمصالحهم ورعاية لتلك العلاقات.

فهل يسع مثل هذه الأنظمة أن ترفع راية الحرية والعدالة في العالم، وهل هناك من فرق بين الدول الكبرى؟ فالظلم والاستعباد والقهر الذي تتميز به الأنظمة الرأسمالية واضح لا يتطلب مزيدًا من العناء.

أمّا الأنظمة اليسارية فقد واجهت جميع الأنظمة وحصرت سلطتها في بضعة أفراد - أي الفئة الحزبية الحاكمة - على أساس بسط العدل وترفيه الطبقات المُعدمة والمسحوقة وبناء المجتمع الخالي من الطبقية. ومن هنا، فقد صهرت آلاف الإقطاعيين الكبار والصغار في بوتقة ثورة «البروليتاريا»، ثمّ أطلقت عددًا من كبارهم ليمسكوا بخيوط اللعبة لكافة حركات بيئتهم السياسية

والاقتصادية. وقد حكموا مجتمعاتهم بقوة غاشمة سلبتهم حتّى التفكير في معارضة زعمائهم. وكأنّهم جعلوا بعض المبادئ المرنة التي يفرزها العقل البشري في إطار مسيرته التكاملية بمثابة مبادئ خالدة لإيقاف عجلة التاريخ عن التطور والحركة والإبقاء عليها ساكنة في موضع معين.

ويطالنا هنا بعض الزعماء المستبدّين الذين يتمكنون بالتدريج من الإطاحة بمعارضتهم ليذكرونا بأساطير الدكتاتوريات المُبادة كسلاطين المغول. على سبيل المثال، فإنّ الزعيم الفذ استالين لا يرى من ضير في قتل أكثر من مليون ومئتي شخص من أجل البقاء في منصبه وحفظ مصالحه.

ولكن ما إن مات حتّى سلوا جسده من قبره وعمدوا إلى إزالة اسمه، فتحول إلى عدم كأنّه لم يكن له من وجود، والحال، كان حتّى الأمس المدافع الوحيد عن حقوق الطبقة العاملة وضمان راحتها ورفاهيتها قد تتطلب المصالح أحيانًا الوقوف بشدّة بوجه حلفائهم وأعوانهم، وإبرام اتفاقيات التعاون والصلح والسلام مع أعدائهم والتنازل عن جميع المبادئ والأُصول التي يتشدقون بها.

فهل يسع مثل هؤلاء الزعماء حمل لواء العدل العالمي ونشره خفاقًا على الشعوب؟

وهل تستطيع الأنظمة المادية الرأسمالية أو الاشتراكية أو الشيوعية الماركسية أن ترفد المجتمع بذلك الزعيم المنتظر؟ قطعًا لا.

حقًّا ليس ذلك سوى للمدرسة الإنسانية التي تفوق النزعة

المادية، والتي تستطيع تطبيق وتنفيذ ذلك المشروع الإنساني في أرجاء العالم كافّة.

المدرسة التي لا يفكر زعيمها قط في حفظ مكانته ومصلحته، ولا يقتصر بنظره على شعبه. كما لا ينظر إلى ما حوله بعين مادية محدودة، وأن يتمتع بالأفكار السماوية الرفيعة والعميقة والترفع عن الضحالة.

فذلك الشخص الذي تخالف مبادئه نظيرتها لدى المدارس المادية التي تنهض اليوم بإدارة شؤون المجتمعات، هو من يستطيع إنقاذ البشرية من هاوية الهلكة وإيصالها إلى شاطئ الأمن والنجاة.

فمن هو ذاك؟ يعتقد المسلمون أنّ ذلك الرجل هو المهدي عجّل الله فرجه الشريف.

من هو المهدي؟

مرّ علينا في بحث آثار الانتظار أنّ جميع الفرق الإسلامية دون استثناء تعيش انتظار المصلح العالمي من نسل النبي وهو «المهدي».

الزعيم الذي هدي إلى هدفه ومشروعه الثوري العالمي والقادر على هذا الأساس على هداية الآخرين وزعامتهم.

وقد بلغ هذا الاتفاق درجة؛ بحيث لم تشذّ عنه حتّى أعظم الفرق الإسلامية إفراطًا - أي الوهابية - ولم تكتف بقبوله، بل هبّت للدفاع عنه لأنّها تراه من العقائد الإسلامية المسلمة.

وسنورد بيان «رابطة العالم الإسلامي» التي تعدّ من أكبر مراكز الوهابية في مكة قبل أن نذكر ما ورد عن علماء العامة بهذا الخصوص. وترى أنّ ما تضمنته هذه الرسالة من وثائق ضرورية لم تدع مجالًا لأحد للإنكار، ولعلّها هي السبب في إذعان الوهابية المتطرفة. والذي نعتقده أنّ هذه الرسالة واضحة صريحة لا تحتاج إلى أدنى توضيح، ولعلّها تلقم من يزعم بأنّ عقيدة ظهور المهدي فكرة مستوردة، حجرًا وتخرسه عن الرد.

حيث تقدم قبل سنتين[١] شخص يدعى «أبو محمّد» من كينيا بسؤال إلى «رابطة العالم الإسلامي» التي تعتبر من المراكز الدينية الحجازية والمكية المهمة بشأن ظهور المهدي المنتظر.

فبعث له «محمّد صالح القزاز» الأمين العام، برسالة ضمّنها جوابه وأشار فيها إلى قبول ابن تيمية للأحاديث المتعلقة بالمهدي. ومن الجدير بالذكر أنّ الفارق الكبير بين هذه الرسالة مع عقائد أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام هي أنّهم ذكروا اسم والد الإمام المهدي «عبد الله»، بينما المسلم لدى الشيعة أنّ والده هو الإمام الحسن العسكري، ولعلّ سرّ هذا الاختلاف ما ورد في بعض روايات العامة «اسم أبيه اسم أبي» بينما تفيد القرائن أنّ أصل هذه العبارة «اسم أبيه اسم ابني» والخطأ في التنقيط هو سبب اختلاف العبارة (أيّد هذا الاحتمال الكنجي الشافعي في كتابه البيان في أخبار صاحب الزمان).

---

(١) ينبغي الالتفات إلى تاريخ تأليف الكتاب.

وعلى كلّ حال، فإنّه لا يمكن الاعتماد على تلك العبارة للأسباب الآتية:

١- لم ترد هذه العبارة في أكثر روايات العامة.

٢- ورد في رواية ابن أبي ليلى «اسمه اسمي واسم أبيه اسم ابني».

٣- تفيد الروايات المتواترة عن طرق أهل البيت عليهم السلام أنّ اسم أبيه «الحسن».

٤- صرحت بعض روايات العامة أنّه ابن الإمام الحسن العسكري[١].

نص الرسالة:

«الكريم أبو محمّد» المحترم (كينيا)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته (إشارة إلى خطابكم (المؤرخ في ٢١ مايو ١٩٧٦م) المتضمن عن موعد ظهور المهدي وفي أي مكان يقيم).

نفيدكم بأنّنا نوفّر لكم مع خطابنا إليكم ما جاء من الفتوى في مسألة المهدي المنتظر، وقد قام بكتابته فضيلة الشيخ محمّد المنتصر الكناني، وأقرّته اللجنة المكنونة من أصحاب الفضيلة الشيخ صالح بن عثيمين، وفضيلة الشيخ أحمد محمّد جمال، وفضيلة الشيخ أحمد علي وفضيلة الشيخ عبد الله خياط.

(١) (للوقوف على المزيد بهذا الشأن راجع كتاب: منتخب الأثر صفحات ٢٣١ إلى ٢٣٦، الباب ١١، وكتاب نور الأبصار).

مدير إدارة المجمع الفقهي الإسلامي: محمّد منتصر الكناني، وقد دعم الفتوى بما ورد من أحاديث المهدي عن الرسول ﷺ، وما ذكره ابن تيمية في المنهاج بصحّة الاعتقاد وابن القيم في المنار، وإن شاء الله تعالى ستجدون في الكتاب مطلبكم وما يغنيكم عن مسألة المهدي أنتم، ومن كان على نهجكم آملين لكم التوفيق والسداد.

الأمين العام محمّد صالح القزاز

بعد التحية

جوابًا عمّا يسأل عنه المسلم الكيني في شأن المهدي المنتظر عن موعد ظهوره وعن المكان الذي يظهر منه وعن ما يطمئنه عن المهدي عجّل الله فرجه الشريف.

هو محمّد بن عبد الله الحسني العلوي الفاطمي المهدي الموعود المنتظر موعد خروجه في آخر الزمان، وهو من علامات الساعة الكبرى يخرج من الغرب ويبايع له في الحجاز في مكّة المكرمة بين الركن والمقام - بين باب الكعبة المشرفة والحجر الأسود عند الملتزم، ويظهر عند فساد الزمان وانتشار الكفر وظلم الناس، يملأ الأرض عدلًا وقسطًا كما ملئت جورًا وظلمًا، يحكم العالم كلّه وتخضع له الرقاب بالإقناع تارة وبالحرب أُخرى، وسيملك الأرض سبع سنين وينزل عيسى عليه السلام من بعده فيقتل الدجّال أو ينزل معه فيساعده على قتله بباب «اللدّ» بأرض فلسطين.

هو آخر الخلفاء الراشدين، الاثني عشر، الذين أخبر عنهم النبي ﷺ في الصحاح. وأحاديث المهدي واردة عن الكثير من

الصحابة، يرفعونها إلى رسول الله ﷺ ومنهم عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ولطحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عباس، وعمّار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وأبو سعيد الخدري، وثوبان، وقرة بن أياس المزني، وعبد الله بن الحارث بن جز، وأبو هريرة، وحذيفة بن اليماني، وجابر بن عبد الله، وأبو أُمامة، وجابر بن ماجد الصدفي، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وعمران بن حصيني، وأُمّ سلمة.

هؤلاء عشرون منهم، ممّن وقفت عليهم، وغيرهم كثيرون، وهناك آثار عن الصحابة مصرّحة بالمهدي، من أقوالهم، كثيرة جدًا، لها حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد فيها.

أحاديث هؤلاء الصحابة التي رفعوها إلى النبي ﷺ والتي قالوها من أقوالهم، اعتمادًا على ما قاله رسول الله ﷺ ورآها الكثير من دواوين الإسلام، وأُمّهات الحديث النبوي، من السنن والمعاجم والمسانيد منها:

سنن أبي داود، والترمذي، وابن ماجة، وابن عمرو الداني، ومسانيد أحمد، وابن يعلى، والبزاز، وصحيح الحاكم، ومعاجم الطبراني الكبير والآلوسي والروياني، والدارقطني في الأفراد، وأبو نعيم في أخبار المهدي، والخطيب في تاريخ بغداد، وابن عساكر في تاريخ دمشق وغيرها.

وقد خصّ المهدي بالتأليف أبو نعيم في «أخبار المهدي»، وابن حجر الهيثمي في القول المختصر في علامات المهدي المنتظر،

والشوكاني في التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجّال والمسيح، وإدريس العرقي المغربي في تأليفه «المهدي» وأبو العبّاس بن عبد المؤمن المغربي في كتابه «الوهم المكنون في الرد على ابن خلدون».

وآخر من قرأت له عن المهدي، بحثًا مستفيضًا، مدير الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة في مجلة الجامعة، أكثر من عدد.

وقد نصّ على أنّ أحاديث المهدي متواترة، جمع من الأعلام قديمًا وحديثًا، منهم السخاوي في «فتح المغيث»، ومحمّد بن أحمد السفاويني في شرح العقيدة، وأبو الحسين الأبري في «مناقب الشافعي»، وابن تيمية في فتاواه، والسيوطي في الحاوي، وإدريس العراقي المغربي في تأليف له عن المهدي، والشوكاني في «توضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجّال، والمسيح»، ومحمّد بن جعفر الكناني في «نظم المتناثر في الحديث المتواتر»، وأبو العبّاس بن عبد المؤمن المغربي في «الوهم المكنون من كلام ابن خلدون»، وحاول ابن خلدون في مقدمته أن يطعن في أحاديث المهدي، محتجًا بحديث موضوع لا أصل له عند ابن ماجة، لا مهدي إلاّ عيسى. ولكن ردّ عليه الأئمة والعلماء؛ وخصّه بالرد شيخنا ابن عبد المؤمن، بكتاب مطبوع متناول في المشرق والمغرب منذ أكثر من ثلاثين سنة.

ونصّ الحفّاظ والمحدّثون على أنّ أحاديث المهدي فيها الصحيح والحسن، ومجموعها متواتر ومقطوع بتواتره وصحته.

وأنّ الاعتقاد بخروج المهدي واجب، وأنّه من عقائد أهل السنّة والجماعة، ولا ينكر إلاّ جاهل بالسنّة ومبتدع في العقيدة. والله يهدي إلى الحقّ ويهدي إلى السبيل.

مدير إدارة المجمع الفقهي الإسلامي

محمّد المنتصر الكناني

ونرى من الضروري هنا أن نورد بعض أقوال سائر علماء العامّة بهذا الشأن:

١- قال الشيخ منصور علي ناصف مؤلف كتاب التاج[١]:
«اشتهر بين العلماء - سلفًا وخلفًا - أنّه في آخر الزمان، لا بدّ من ظهور رجل من أهل البيت، يُسمى «المهدي»، يستولي على الممالك الإسلامية، ويتبعه المسلمون ويعدل بينهم ويؤيد الدين».
ثمّ قال: «وقد روى أحاديث المهدي جماعة من خيار الصحابة، وأخرجها أكابر المحدّثين؛ كأبي داود والترمذي وابن ماجة والطبراني وأبي يعلى والبزاز والإمام أحمد والحاكم، رضي الله عنهم أجمعين، ولقد أخطأ من ضعَّفَ أحاديث المهدي كلّها كابن خلدون وغيره»[٢].

٢- لم يستطع حتّى ابن خلدون المعروف بمخالفته لأحاديث المهدي أن ينكر شهرة أحاديث المهدي بين جميع علماء

(١) ألف هذا الكتاب أخيرًا وأثنى عليه جماعة من كبار علماء الأزهر، كما ورد ذلك في مقدمته بهدف جمع مجموعة من «كتب الحديث الخمسة» التي تعد من أهم كتب العامة في الحديث.
(٢) التاج، ج٥، ص٢١٠.

الإسلام حتّى قال: «المشهور بين جميع المسلمين طيلة العصور أنّه يظهر آخر الزمان رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويبسط العدل ويتبعه المسلمون»[١].

٣- قال العالم المصري المعروف محمّد الشبلنجي في كتابه «نور الأبصار»: «تواترت الأخبار عن النبي ﷺ على أنّ المهدي من أهل بيته وأنّه يملأ الأرض عدلًا»[٢].

٤- ذكر الشيخ محمّد الصبان[٣] في كتابه «إسعاف الراغبين»: «إنّ الأخبار المتواترة عن النبي ﷺ أنّ المهدي سيظهر آخر الزمان وأنّه من أهل بيت النبي وسيملأ الأرض قسطًا وعدلًا».

٥- روى ابن حجر في صواعقه المحرقة عن أبي الحسن الأمري: «إنّه وردت أخبار متواترة وكثيرة عن النبي ﷺ سيظهر المهدي وهو من أهل بيت النبي ﷺ... ويملأ الأرض قسطًا وعدلًا»[٤].

٦- قال صاحب كتاب «التاج» بعد أن أشار إلى كتاب «الشوكاني» أحد مشاهير علماء العامة، وقد ألّفه بشأن الأحاديث المتواترة في المهدي وخروج الدجّال، وعودة المسيح وضمّنه شرحًا في تواتر تلك الأحاديث: «هذا يكفي لمن كان عنده ذرة من الإيمان وقليل من إنصاف»[٥].

---

(١) ابن خلدون، طبعة بيروت ص٣١١ (طبقًا لما نقله محمود أبو رية في كتابه أضواء على السنّة المحمّدية).

(٢) نور الأبصار، ص١٥٧.

(٣) رسالة صبان في حاشية نور الأبصار، طبعة مصر، ص١٣٨.

(٤) الصواعق، ص٩٩.

(٥) التاج، ج٥، ص٣٢٧.

وللوقوف على المزيد من شرح الأحاديث التي روتها العامة في قيام هذه النهضة العالمية الكبرى، راجع كتاب «المهدي» وكتاب «منتخب الأثر في أحوال الإمام الثاني عشر».

منطق مخالفي أحاديث المهدي:

علمنا من البحث السابق أنّ نفرًا قليلًا من العامة عارض أحاديث المهدي ومنهم: المؤرخ المعروف ابن خلدون والكاتب المصري المعاصر أحمد أمين، وإن تصدى لهم أغلب علماء العامة. مع ذلك، لا بدّ من التعرف على آرائهم بهذا الخصوص.

ويمكن إيجاز الاعتراضات في خمسة مواضيع هي:

١- إسناد أخبار المهدي ليست معتبرة.

٢- لا تنسجم الأخبار المذكورة مع العقل.

٣- استغلال هذه الأخبار من بعض أدعياء المهدوية.

٤- إنّ هذه الأخبار تؤدي إلى ضعف المجتمع الإسلامي.

٥- تصبّ هذه الأخبار في صالح الشيعة وعقائدهم.

ضعف منطق المخالفين:

يستفاد من هذه الإشكالات أنّ لمخالفة أحاديث المهدي صبغة ظاهرية وهي ضعف سند الروايات الواردة بهذا الشأن، أو ضعف دلالاتها؛ وصبغة واقعية تكمن خلف سابقتها ودافعها

التعصب المذهبي، وبعض المصالح غير المبرّرة، وعلى كلّ حال فإنّ منطق المخالفين أجوف تمامًا وفي كلّ جانب، وذلك لأنّه:

أوّلًا: إنّ أحاديث المهدي - كما ذكرنا سابقًا - وردت في أغلب مصادر العامة المعتبرة، فضلًا عن مصادر الشيعة، وقد رواها كبار محدّثي العامة، وقد صرّح أغلبهم بتواترها. وعليه، فلا مجال لمناقشة إسنادها؛ ذلك لأنّ شهرتها وتواترها تغنينا عن ملاحظة السند، أي أنّ هذه الأحاديث على ضوء معايير تمييز الأحاديث قطعية.

وبغض النظر عن ذلك، فإن هنالك الأحاديث الصحيحة والمعتبرة بين تلك الأحاديث، والتي اعترف بصحتها محدّثو العامة.

والعجيب اعتراف «ابن خلدون» بهذه الحقيقة، فقد ذكر ذلك بعد صفحات من كتابه التي أفردها لأحاديث المهدي وحاول إثارة الشكوك بخصوص إسنادها، فقال: «فهذه جملة من الأحاديث التي أخرجها الأئمّة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان، وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلاّ القليل والأقل منه».

وهكذا فهو يعترف على الأقل بأنّ القليل من هذه الأحاديث صحيحة وتأبى النقد.

أضف إلى ذلك، فإنّ هذه الأحاديث لا تقتصر على تلك التي ذكرها ابن خلدون في كتابه. ومن هنا، فقد ألف بعض علماء العامة كتبًا ردوا فيها على ابن خلدون، وصرّحوا بتواتر أحاديث المهدي، وعدم اقتصارها على ما أورده، وأشرنا إلى ذلك سابقًا.

ويتضح من ذلك أنّ إنكار الأحاديث عن هذا الطريق، أي طريق تضعيف السند، هو إنكار لا أساس له من الصحّة.

ثانيًا: لم يرد في الأحاديث المذكورة ما يناقض العقل ليكون مدعاة لإنكارها.

وحتّى إن بدا مضمون بعضها خلاف العادة، فهو لا يفوق معاجز سالف الأنبياء، والاستبعاد لا يمكنه الحيلولة دون قبولها.

بالإضافة إلى أنّ أحاديث المهدي ليست وحدة متصلة؛ بحيث نقبلها جميعًا أو نرفضها جميعًا. بعبارة أُخرى، فإن القدر المسلم من الأحاديث المذكورة، أي قيام شخص من أهل بيت النبي ﷺ، ومن ولد فاطمة عليها السلام، وممارسته للنهضة الإصلاحية العالمية وملء الأرض قسطًا وعدلًا، ليس بالمطلب الذي يشكل عليه عقليًا، بل أثبتنا سابقًا أنّ هذا الموضوع ينسجم مع سلسلة من الأدلة العقلية، وأما بعض الأحاديث بعلامات الظهور وأمثال ذلك، فإن كانت مستبعدة وليست واضحة من حيث السند ولا يمكن الوثوق بها، فلنا أن نردّها، لكن لا علاقة لردّها بسائر الأحاديث.

وخلاصة القول، إنّنا لا ندري لِمَ أغمض البعض عن تفكيك الأحاديث عن بعضها البعض ونقد بعضها دون الآخر، فوقع في هذا الخطأ الفاحش.

فهذه الأحاديث تقول إنّ المدنية المادية لا تصلح البشرية، وتبدو حرب فيتنام التي استغرقت ٢٥ سنة أنبوبة اختبار

عجيبة، يختبر بها جميع المفكرين آراءهم، إلاّ أني كعالم دين أقول إنّ هذا دليل على عجز المدارس المادية، وأنّ كافة الوسائل المادية عناصر تصعِّد حدّة الأزمة إن افتقرت للإيمان، وهذا ما نلمسه في سائر مناطق العالم.

ثالثًا: إن كانت هذه الأحاديث لصالح الشيعة فهل ذنب الشيعة أم الأحاديث؟! وما الذي يمنع من قبول الحقّ كيفما اتّضح؟ إلى جانب ذلك، فإن الأحاديث المذكورة وإن أيّدت رأي الشيعة، لكن ليست هنالك من ملازمة بين قبول هذه الأحاديث وقبول التشيّع. فما أكثر من يؤمن بنهضة المهدي لكنهم ليسوا شيعة. على كلّ حال، لا ينبغي لبعض التعصبات المقيتة أن تحول دون إدراك الحقيقة، فهذا الأمر أشبه بما يقوله المريض المدين لطبيب، ويكتب له وصفة طبية تتضمن شفاءه فلا يلتزم بها، لأنّه إن التزم بها وتماثل للشفاء، سيقول الناس إنّ ذلك الطبيب ماهر.

رابعًا: صحيح هناك استغلال لهذه الأحاديث ولكن هل هنالك من حقيقة لم تستغلّ؟ فهل قلة هم أولئك الذين ادّعوا النبوة والألوهية وسائر المقامات المعنوية؟ وهل الأديان المبتدعة في العالم قليلة؟! فهل ينبغي طرح كلّ هذه الحقائق خشية الاستغلال؟! أم هل ينبغي التنكر للألوهية والنبوّة؟ وهل قليل استغلال مختلف القوى المادية في العالم؟ هل نتجاوزها جميعًا؟ ما هذا المنطق؟!

لقد شهد القرن الثاني عشر ظهور اثني عشر شخصًا كلّهم

ادّعوا أنّهم المسيح - وقد استقطبوا عددًا من الأفراد - وهذا ما أثار بعض النزاعات والمعارك التي أودت بحياة الكثير من الناس[١]، فهل يدعونا ذلك إلى إنكار المسيح بذريعة استغلال البعض لهذه القضية؟!

خامسًا: كما ذكرنا في بحث الانتظار، فإنّ الاعتقاد بقيام المهدي بالنسبة إلى أولئك الذين يعيشون الانتظار الحقيقي لا يوجب الخمول والركود فحسب، بل هو أساس الأمل والوقوف بوجه مشاكل الحياة وصعوباتها، على غرار الإيمان بالله وقدرته المطلقة الذي يمنح الإنسان قوة واقتدارًا، ويبعده عن الشعور باليأس والإحباط. فانتظار المهدي عنصر قوة وحركة وإصلاح. والحال لم يدرك البعض معنى هذا القيام كما ينبغي فنزع نحو الكسل والخمول والتهرب من المسؤولية، وهؤلاء هم المقصرون الحقيقيون كأولئك الذين لم يدركوا الإيمان بالله وقدرته المطلقة. وزبدة الكلام إنّه لا يمكن التنكر لواقع قائم لبعض الذرائع الواهية الجوفاء.

---

(١) القاموس المقدس، ص٨١٨.

رابعا:
المهدي في مصادر الشيعة الروائية

تبدو قضية الإيمان بالمصلح العالمي «المهدي» أكثر عمقًا ورصانة لدى الشيعة الإمامية؛ وذلك لأنّ العامة إن آمنت بها كمسألة فرعية، فإنّ الشيعة تراها من الأُصول الأصلية. فسلسلة الأئمّة الاثني عشر تختتم به وهو خاتم الأوصياء.

وقد ذهب بعض الباحثين في الشؤون الإسلامية إلى أنّ الروايات الواردة عن طرق العامة بهذا الشأن بلغت ٢٠٠ رواية، بينما تجاوزت الألف رواية من طرق الشيعة.

وإن عدّت العامة تلك الروايات في المصلح العالمي من الروايات المتواترة، فهي من «ضروريات المذهب» لدى الشيعة.

ومن هنا، كانت مؤلفات علماء

الشيعة تفوق نظيرتها من علماء العامة. وعلى الرغم من أنّ جلّ اهتمام المؤلفات تركز على جمع الروايات دون التحليل سوى في بعض الموارد، إلاّ أنّ جهودًا عظيمة بذلت لجمع تلك الروايات. ولعلّه يمكن الإشارة في هذا الخصوص إلى ثلاثة كتب - أُلّفت بالأُسلوب المذكور - تعتبر أكثر شمولية من غيرها، والتي أُلّفت من بعض العلماء المعاصرين وهي:

١- كتاب «المهدي» للفقيه الجليل سيّد صدر الدين الصدر.

٢- كتاب «البرهان على وجود صاحب الزمان» للعالم المجاهد المرحوم السيّد محسن الأمين.

٣- كتاب «منتخب الأثر في أحوال الإمام الثاني عشر» للعالم الفاضل «لطف الله الصافي» بتوجيه وتشجيع المرحوم آية الله البروجردي، والذي لخص باللغة الفارسية تحت عنوان «البشارة بالأمن والأمان».

ومصادر هذه الكتب العديد من مؤلفات قدماء علماء الفريقين، والتي أُلفت بصورة مستقلة أو على سبيل الإشارة لهذا الموضوع. وحيث لا يسع الكتاب نقل جميع الروايات الواردة بهذا الشأن، فإنّنا نكتفي بمقتطفات من الكتاب الأخير على أن نشير في الفصول القادمة إلى بعض الأخبار والروايات بما يتعلق بالبحث:

١- تضمّن الفصل الأوّل إشارة إلى بعض الأحاديث التي وردت بشأن الخلفاء وأوصياء النبي ﷺ الاثني عشر، وقد أحصت

٢٧١ حديثًا من المصادر المعروفة للفريقين، والتي عبرت عنه بمختلف العبارات مثل «الإمام» و«الخليفة» و«الأمير» وما شابه ذلك. وقد جاءت هذه الأحاديث في أهم مصادر العامّة، ومصادر أهل البيت عليهم السلام.

ولا ترى الشيعة أيّة صعوبة في توجيه هذه الأحاديث. إلاّ أنّ العامّة عانوا الأمرين في توجيهها، فلا يسعهم من جانبٍ إنكارها لأنّها وردت في مصادرهم المعتبرة، ومن جانبٍ آخر لم ينسجموا مع عقيدة الشيعة بشأن «الأئمّة الاثني عشر»؛ فقد ذهبوا أحيانًا إلى أنّ الأصل هم الخلفاء الأربعة، ثمّ أضافوا لهم ثمانية خلفاء.

والحال لو أرادوا حساب الخلفاء الذين وصفهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالأُمراء والأئمّة الحقّ، وإن أغمضوا، فإنّه يتعذر عليهم ذكر بعض الأفراد ضمن الأئمّة، كيزيد بن معاوية وسائر الحكّام من بني أمية. ولو أردنا حشر بعض الأفراد الأكثر اعتدالًا، وبالنظر إلى وحدة أهداف وخطط بني أمية وبني العباس، فإنّه ليست هناك من ضابطة، ناهيك عن المشكلة التي يفرزها التقطيع لهذه السلسلة الاثني عشرية من حيث الزمان.

فزعموا أنّ الاثني عشر هم الخلفاء الراشدون وثمانية ممّن سيأتون لاحقًا وآخرهم المهدي. وعلى هذا الضوء، فإنّ فاصلة كبيرة تتخلل سلسلة خلفاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا ما لا ينسجم قط مع الروايات المذكورة.

٢- وردت في الفصل الثاني الروايات التي تشير إلى أنّ عدد

الأئمّة بعد النبي ﷺ كعدد نقباء بني إسرائيل الذين أحصاهم القرآن ١٢ نقيبًا، وقد تضمن ٤٠ رواية من كتب الفريقين، والتي تكمل البحث السابق.

٣- الفصل الثالث الذي اشتمل على الروايات التي تصرّح بأنّهم ١٢ إمامًا ولهم علي عليه السلام وقد بلغت هذه الروايات ١٣٣ رواية.

٤- تضمّن الفصل الرابع روايات عن مصادر الفريقين، صرّحت بأنّ أوّل الخلفاء علي عليه السلام وآخرهم المهدي عجل الله فرجه الشريف. بلغت روايات هذا الفصل ٩١ رواية.

٥- وردت في الفصل السابق الإشارة إلى الأحاديث التي صرّحت بأنّ عدد الأئمّة ١٢ وتسعة منهم من ولد الحسين بن علي عليهما السلام، وقد تضمن الفصل ١٣٩ رواية.

٦- بالإضافة إلى ما ورد في الفصل السابق من أنّ عدد الأئمّة ١٢، وتسعة منهم من ولد الحسين بن علي عليهما السلام، فقد ورد قيد آخر هو «تاسعهم قائمهم»، وتضمن هذا الفصل ١٠٧ روايات.

٧- تضمّن هذا الفصل الأحاديث التي أشارت إلى أسمائهم، وبعض هذه الأحاديث من طرق العامّة، إلاّ أنّ أكثريتها من مصادر الشيعة، وقد اشتمل هذا الفصل على ٥٠ رواية.

إلى جانب الروايات المستفيضة في الخصائص الجسمية والروحية للمهدي وعلامات الظهور، وكيفية نهضته وحكومته

العالمية وسائر القضايا المتعلقة بهذا القيام العظيم. يتّضح من هذه الأحاديث أنّ المصلح العالمي العظيم، المهدي الموعود يمتاز بالخصائص الآتية:

أ- إنّه من أهل بيت النبي ﷺ وولده.

ب- إنّه من ولد الإمام الحسين عليه السلام.

ج- الإمام الثاني عشر من الأئمّة بعد النبي.

د- هو ابن الحسن بن علي العسكري.

هـ- صاحب الحكومة العالمية.

و- يتحرّر المستضعفون في عصره من قيود وأغلال الأُسر، وتنتهي الحروب، ويحلّ محلّها الأمن والسلام والبناء.

وكما ذكرنا، فإنّ عدد هذه الروايات من الكثرة؛ بحيث تتطلب بمفردها كتابًا مستقلًا، وحيث أُلفت كتب عدّة بهذا الشأن أشرنا سابقًا إلى بعضها، فإنّنا نتحفّظ عن الخوض في هذه الروايات، ونقتصر على بعض الإشارات في الأبحاث القادمة لإكمال الأبحاث السابقة.

والمشكلة في هذه المباحث أنّها غالبًا ما تقتصر على نقل الروايات دون أدنى تحليل أو مناقشة، وهدفنا في هذا الكتاب هو الغوص بصورة أعمق في الأدلة العقلية، والوقوف عند الأدلّة النقلية والروايات، وتسليط الضوء عليها.

الفصل الخامس:
ملامح انطلاقة النهضة

علامات الظهور

هل هنالك من علامات على قرب هذه النهضة العالمية؟ هل يمكن التكهن بأنّ هذه النهضة ستقع الآن أم لا؟ هل يمكن التسريع في انطلاقة هذه النهضة؟ إن كان هذا الأمر ممكنًا، فما هي الوسائل التي من شأنها التسريع في الزمان؟

لا بدّ من القول إنّ الاجابة عن أكثر هذه الأسئلة بالإيجاب؛ لأنّ أيّة عاصفة عظيمة لا تنطلق دون مقدّمة، ولا تحدث نهضة في مجتمع بشري دون علامات مسبقة.

فقد وردت إشارات في الأحاديث الإسلامية إلى سلسلة من العلامات التي تشير إلى قرب وقوع تلك النهضة الشاملة والتي يمكن تقسيمها إلى قسمين:

الطائفة الأُولى: العلامات التي يمكن التكهن بها حسب خصائص كلّ نهضة.

الطائفة الثانية: الجزئيات والتفاصيل التي يمكن إدراكها من خلال المعلومات الاعتيادية، وتنطوي في الغالب على تكهنات إعجازية.

ونشير هنا إلى «ثلاث علامات مهمّة» من الطائفتين:

١ - شمولية الظلم والفساد:

العلامة الأُولى التي يمكن من خلالها تصور قرب وقوع كلّ نهضة - حتّى هذه النهضة الكبرى - اتساع رقعة الظلم والجور والفساد، والتطاول على حقوق الآخرين، وأنواع المفاسد الاجتماعية والانحرافات الأخلاقية التي تعدّ من عوامل سعة الفساد في المجتمع. فمن الطبيعي أن يختزن الضغط الذي يتجاوز حدّه الانفجار؛ ذلك لأنّ الانفجارات الاجتماعية على غرار الانفجارات الميكانيكية تستتبع الضغوط الشديدة الزائدة عن الحدّ.

وبالطبع، فإنّ سعة الظلم والفساد بوسيلة أمثال «الضحاك» في كلّ زمان، إنّما تسقي شجرة الثورة، وترعرع أمثال «كاوه الحداد» عند كورة النار، حتّى إذا اشتدت الأزمة، اقتربت انطلاقة الثورة.

ولعلّ الأمر كذلك بالنسبة إلى اقتراب النهضة العالمية وظهور المصلح العالمي المهدي.

غاية الأمر كما أشرنا سابقًا، فإنّه ليست هنالك من ضرورة لأن نكون كبعض الأفراد السلبيين، فنفكر في المزيد من الظلم والفساد، بل لا بدّ أن نسعى إلى تهذيب أنفسنا والآخرين،

وإعداد الثُّلُة المقتدرة والشجاعة والعالمة التي يمكنها حمل لواء النهضة ومواجهة الظلم والفساد.

على أيّة حال، فقد ورد هذا الموضوع في أغلب الروايات الإسلامية تحت عنوان «كما ملئت ظلمًا وجورًا».

ذكرت عين هذه العبارات في أغلب الأحاديث التي روتها مصادر الفريقين.

ويستفاد من مجموعها أنّ أوضح علامات النهضة في هذا الموضوع. وهنا يرد هذا السؤال: هل يختلف «الظلم» عن «الجور» حيث تكرر هذان العنوانان كثيرًا؟

يستفاد من جذور هاتين المفردتين أنّ التجاوز على حقوق الآخرين على نوعين ورد كلّ منهما مستقلًا في الآداب العربية.

الأوّل: أن يهضم الإنسان لنفسه حقًّا آخر ويغتصب عناء الآخرين وهذا ما يسمى بالظلم.

والآخر: أن يسلب الأفراد حقوقهم ويعطيها لآخرين، ويسلّط أنصاره على أموال الآخرين أو أنفسهم، أو أعراضهم، ويميز بينهم لترسيخ دعائم حكومته، وهذا ما يصطلح عليه بالجور، والذي يقابل «الظلم» هو «القسط»، ويقابل «الجور» «العدل»[1].

---

(١) طبعًا هذا إن ذكرت الكلمتان معًا، أمّا إن ذكرتا بصورة مستقلة فلربما أريد بهما العدل والقسط بمعنى واحد.

على كلّ حال، فحين يعمّ «التجاوز» بحقوق الآخرين المجتمع البشري من جانب، و«التمييز العنصري» من جانب آخر، فإنّه يظهر ويطيح بكلّ ذلك.

ما ذكر سابقًا، كليات بشأن سعة الفساد كعامل في كلّ نهضة.

والجدير ذكره أنّ الروايات الإسلامية قد أشارت إلى هذه العلامات والمفاسد، وكأنّ هذه التكهنات ليست مرتبطة بالقرون الأربعة عشر الماضية، بل كأنّها وردت في هذا القرن أو قبل بضع سنوات. وقد نلمس اليوم أغلبها، وهذا من المعاجز.

ومن ذلك رواية الإمام الصادق عليه السلام التي أشارت إلى عشرات الأنواع من هذه المفاسد، ولبعضها جوانب اجتماعية وسياسية، وأُخرى أُخلاقية، تدعو مطالعتها إلى تأمل الإنسان واستغراقه في التفكير. وإليك جانب من متن هذه الرواية.

قال الإمام الصادق عليه السلام لبعض أصحابه:

«١- إذا رأيت الجور قد شمل البلاد.

٢- إذا رأيت القرآن قد خلق وأحدث ما ليس فيه ووجه على الأهواء.

٣- إذا رأيت الدين قد انكفأ كما ينكفئ الإناء.

٤- إذا رأيت أهل الباطل قد استعلوا على الحقّ.

٥- إذا رأيت الرجال قد اكتفوا بالرجال والنساء بالنساء.

٦- إذا رأيت المؤمن صامتًا.

٧- إذا رأيت الصغير يستحقر الكبير.

٨- إذا رأيت الأرحام قد تقطعت.

٩- إذا رأيت الثناء قد كثر.

١٠- إذا رأيت الخمور تشرب علانية.

١١- إذا رأيت سبيل الخير منقطعًا وسبيل الشر مسلوكًا.

١٢- إذا رأيت الحلال يحرَّم والحرام يحلَّل.

١٣- إذا رأيت الدين بالرأي.

١٤- إذا رأيت المؤمن لا يستطيع أن ينكر إلاّ بقلبه.

١٥- ورأيت العظيم من المال ينفق في سخط الله.

١٦- ورأيت الولاة يرتشون في الحكم.

١٧- ورأيت الولاية قبالة لمن زاد.

١٨- ورأيت الرجل يأكل من كسب امرأته من الفجور.

١٩- ورأيت القمار قد ظهر.

٢٠- ورأيت الملاهي قد ظهرت يمرّ بها لا يمنع أحد أحدًا، ولا يجترئ أحد على منعها.

٢١- ورأيت القرآن قد ثقل على الناس استماعه وخف على الناس استماع الباطل.

٢٢- ورأيت الجار يكرم الجار خوفًا من لسانه.

٢٣- ورأيت المساجد قد زخرفت.

٢٤- ورأيت طلب الحجّ لغير الله.

٢٥- ورأيت قلوب الناس قد قست.

٢٦- ورأيت الناس مع من غلب.

٢٧- ورأيت طالب الحلال يُذمّ وطالب الحرام يُمدح.

٢٨- ورأيت المعازف ظاهرة في الحرمين.

٢٩- ورأيت الرجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فيقوم إليه من يتضحه فيقول هذا عنك موضوع.

٣٠- ورأيت المساجد محتشية ممن لا يخاف الله.

٣١- ورأيت الناس همهم في بطونهم وفروجهم.

٣٢- ورأيت الدنيا مقبلة إليهم.

٣٣- ورأيت النساء يبذلن أنفسهن لأهل الكفر.

٣٤- ورأيت إعلام الحقّ قد درست.

٣٥- ورأيت الحرب قد أديل من العمران.

٣٦- ورأيت الرجل معيشته من بخس المكيال والميزان.

٣٧- ورأيت الرجل عنده المال الكثير لم يزكِّهِ منذ ملكه.

٣٨- ورأيت الرجل يمسي نشوانًا ويصبح سكرانًا.

٣٩- ورأيت الناس ينظر بعضهم إلى بعض ويقتدون بأهل الشرور.

٤٠- ورأيت كلّ عام يحدث فيه من الشر والبدعة أكثر ممّا كان.

٤١- ورأيت الخلق والمجالس لا يتابعون إلاّ الأغنياء.

٤٢- ورأيتهم يتسافدون كما تتسافد البهائم.

٤٣- ورأيت الرجل ينفق الكثير في غير طاعة الله، ويمنع اليسير في طاعة الله.

٤٤- ورأيت الرجل إذا مرّ به يوم لم يكسب فيه الذنب العظيم... حزينًا.

٤٥- ورأيت النساء قد غلبن على الملك وغلبن على كلّ أمر.

٤٦- ورأيت رياح المنافقين دائمة، ورياح أهل الحقّ لا تتحرّك.

٤٧- ورأيت القضاة يقضون بخلاف ما أمر الله.

٤٨- ورأيت المنابر يؤمر عليها بالتقوى، ولا يعمل القائل بما يأمر.

٤٩- ورأيت الصلاة قد استخفّ بأوقاتها.

٥٠- ورأيت الصدقة بالشفاعة لا يراد بها وجه الله».

كما ذكرنا فما أوردنـاه خلاصة من حديث كإشارة لبعض المفاسد التي تسبق النهضة العالمية الكبرى.

ويمكن تقسيم هذه المفاسد إلى ثلاثة أقسام:

١- المفاسد المتعلّقة بقضايا الحقوق والحكومات مثل اتساع الظلم وغلبة حماة الباطل، وانعدام حرية البيان والعمل، حتّى لا يستطيع المؤمنون إنكار الظلم والظلمة سوى بقلوبهم، إلى جانب صرف الأموال العظيمة في المصارف العبثية أو الضارّة والهدّامة، واتساع الرشوة، والمزايدة على المناصب، ونزوع الناس الضعفاء، والذين يفتقرون إلى الثقافة الصحيحة نحو أصحاب القدرة والغلبة - مهما كان ذلك الشخص - وكذلك إنفاق الأموال في الحروب وسباق التسلح والاهتمام بها أكثر من العمران والبناء؛ حتّى تكون ميزانية الحرب أكثر من ميزانية البناء.
كما يبتدع كلّ عام سبيلًا جديدًا للفساد والظلم والاستعمار، وقلّ من يشعر بالمسؤولية تجاه المشاكل الاجتماعية حتّى ليوصي بعضهم البعض بالصمت إزاء الأحداث.

٢- المفاسد المرتبطة بالقضايا الأخلاقية من قبيل: اتساع التملّق والمجاملة، وانهماك الرجال بالأفعال الوضيعة؛ كالارتزاق عن طريق المتاجرة بالزوجة. إلى جانب اتساع الشراب والقمار وأنواع الملاهي المحظورة، والقول دون العمل، والاستغراق في الظاهر واحترام الأفراد على أساس الغنى والثراء.

٣- المفاسد ذات الصلة بالأُمور الدينية من قبيل تحميل الأهواء على القرآن، وتفسيره بالرأي، والتعصب الشخصي في القضايا الدينية وتجمهر العصاة في المساجد، والاهتمام بظاهر المساجد دون باطنها ومحتواها، وبالتالي الاستخفاف بالصلاة وما شابه ذلك.

ولو تأملنا قليلًا، لرأينا أنّ أغلب هذه المفاسد تسود المجتمعات الراهنة، ويتوقع حدوث ما تبقّى منها. وعليه، فما الذي ينبغي علينا إعداده لقيام تلك النهضة العظيمة؟

الجواب ما ذكرناه سابقًا، وهو أنّنا نفتقر إلى الوعي المطلوب، بعبارة أُخرى ردّ الفعل البنّاء والثوري إزاء هذه المفاسد.

على كلّ حال، فإنّ ظهور هذه العلامات لوحدها ليست شرطًا في تحقق تلك النهضة الشاملة؛ بل هي مقدمة لليقظة الفكرية، وأسواط لإيقاظ الأرواح الغافلة، وأرضية لخلق الاستعداد الاجتماعي والنفسي. والعالم مطالب شاء أم أبى بتحليل جذور هذه الاختلالات، بالإضافة إلى نتائجها وعواقبها، وهذا ما يؤدي إلى وعي ذاتي عام يوقنُ الناس من خلاله باستحالة مواصلة الوضع السائد ولا بدّ من النهضة؛ النهضة على جميع الأصعدة لإرساء قواعد النظام الإلهي العادل الحقّ.

والجدير بالذكر أنّه ليس من الضروري ظهور هذه المفاسد في أنحاء العالم كافّة، ويتعذر حصول هذا الشرط لو كانت هناك بقعة طاهرة، بل المعيار القضية النوعية للناس، سواء كانت في

الشرق أم في الغرب. بعبارة أُخرى، فإن هذا الحكم كسائر أكثر الأحكام على أساس الأُسلوب الغالب.

٢ - الدجّال:

عادة ما يتبادر إلى الذهن حين الحديث عن الدجّال وعلى ضوء السابقة الذهنية العامة، شخص معين ذو عين واحدة وجسد ضخم ودابة خيالية، وسيظهر قبل نهضة المهدي العالمية ولديه بعض الخطط والمشاريع.

ولكن كما يستفاد من الأصل اللغوي لكلمة الدجّال من جانب[١]، ومصادر الحديث من جانب آخر، فإنّ الدجّال لا يقتصر على فرد معين، بل هو عنوان كلي للأفراد المزورين والماكرين والمخادعين، الذين يعتمدون مختلف الطرق والوسائل لاستقطاب الآخرين، ويظهرون كحجر عثرة أمام النهضة البنّاءة.

جاء في الحديث الصحيح الذي أورده الترمذي أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّه لم يكن نبي بعد نوح إلاّ أنذر قومه الدجّال وأنا أُنذركموه»[٢].

قطعًا، كان الأنبياء السابقون يحذرون قومهم من فتنة الدجّال الذي يظهر في آخر الزمان، ويبتعد عنهم مدّة آلاف السنين،

---

(١) الدجّال من مادة دجل الكذب والخداع.

(٢) صحيح الترمذي، باب ما جاء في الدجّال، ص٤٢.

خاصة أنّه ورد آخر الحديث. فوصفه لنا رسول الله فقال: «لعلّه سيدركه بعض من رآني أو سمع كلامي».

الاحتمال الراجح أنّ ذيل الحديث إشارة إلى الطواغيت الماكرين؛ كبني أمية وبعض الأفراد مثل معاوية الذي استغل بعض الأُمور من قبيل «خال المؤمنين» و«كاتب الوحي» إلى جانب سائر المكر والخداع، وإخراج الناس من الصراط المستقيم إلى السنن والعادات الجاهلية، وإشاعة الطبقية والحكومة الاستبدادية، وتسليط الطالحين والمتملقين على الناس وإقصاء الفضلاء والصالحين.

وكما ورد عنه ﷺ في الدجّال أنّه قال: «ما من نبي إلاّ وقد أنذر قومه ولكن سأقول فيه قولًا لم يقله نبيّ لقومه تعلمون أنّه أعور...».

وتركيز الأحاديث على زمان نوح عليه السلام يمكن أن يكون إشارة إلى أبعد زمان، أو عدم وجود نموذج الدجّال في الأزمنة التي سبقت نوح؛ وذلك لأنّ الشريعة الأُولى إنّما أتى بها نوح، أو لعدم نفوذ الحيلة والخداع في المجتمعات البشرية السابقة.

على كلّ حال، هناك تفسير لصفة العين الواحدة للدجّال والتي سنتناولها لاحقًا.

والجدير ذكره أنّ بعض الأحاديث[١] صرّحت بظهور الدجّال

(١) مسند أحمد، ج٥، ص٥١.

قبل المهدي بثلاثين سنة، كما أشارت الأناجيل إلى ظهور الدجّال.

فقد جاء في الرسالة الثانية ليوحنا: «سمعتم بظهور الدجّال فقد ظهر الآن الكثير من الدجّالين»[١]؛ فالعبارة تؤكد تعدد الدجّالين.

وجاء في الحديث: «قال رسول الله ﷺ لا تقوم الساعة حتّى يخرج نحو من ستين كذّابًا كلّهم يقول أنا نبي»[٢].

وعلى الرغم من أنّ عنوان الدجّال لم يرد في هذه الرواية، ولكن يفهم منها إجمالًا أنّ المدّعين الكاذبين والمخادعين في آخر الزمان لا يقتصرون على شخص أو بضعة أشخاص.

على كلّ حال، ما لا يمكن الترديد فيه أنّ انطلاقة أية نهضة، وفي أي مجتمع تشهد وجود بعض الأفراد الذين يمارسون الحيلة والمكر والخداع على ضوء الإبقاء على الأنظمة الفاسدة وديمومة الأوضاع القائمة، واستغلال أوضاع الناس الفكرية والاجتماعية، وتوظيفها لصالحهم. وأبعد من ذلك، إنّهم ربّما يطلقون الشعارات الثورية، وهذه إحدى العقبات التي تشكل أعظم موانع الإصلاح والنهضة الأصيلة.

فهؤلاء بعض الدجّالين الذين حذّر الرسل منهم أممهم ونبهوهم إلى خطورة خططهم الجهنمية.

---

(١) إنجيل يوحنّا، الرسالة ٣، الباب ١، العبارة ٦ و٧.

(٢) بحار الأنوار، ج٥٢، ص٢٠٩.

غاية الأمر، أنّه قبيل ظهور المهدي وتلك النهضة العظيمة والشاملة الحقّة، فإنّ الأرضية الفكرية والنفسية والاجتماعية كلّما كانت أكثر أعدادًا على النطاق العالمي، تتضاعف أنشطة هؤلاء الدجّالين، فيأخذون بالظهور الواحد تلو الآخر؛ ليعرقلوا تطور المجالات الثورية، ويعتمدوا آلاف الحيل بغية حرف الأفكار العامّة.

طبعًا لا ضير أن يكون هنالك دجّال كبير على رأس الجميع. أمّا العلامات التي ذكرتها بشأنه بعض الروايات، فلا تعدو الكتابة والرمز. مثلًا، يستفاد من الرواية الواردة في بحار الأنوار عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّ الدجّال يتصف ببعض الصفات مثل:

١- إنّ له عينًا واحدة وسط جبهته تضيء كالنجم؛ إلاّ أنها عين دموية كأنّها قطعة من الدم.

٢- له دابة سريعة بيضاء خطوتها ميل وتطوي الأرض بسرعة.

٣- إنّه يدّعي الألوهية ويسمع صوته كلّ من في العالم.

٤- إنّه يغوص في البحار وتنطلق معه الشمس، بين يديه جبل من الدخان وخلفه جبل أبيض يراه الناس طعامًا.

٥- يظهر حين يعيش الناس القحط و...[١].

لا شك أنّنا لسنا مخوّلين أن نضفي الرمزية على كلّ مفهوم

---

(١) اقتباس من حديث صعصعة بن صوحان (بحار الأنوار، ج٥٢، ص١٩٢).

من المفاهيم الدينية الواردة في القرآن أو مصادر الحديث، ذلك أنّ هذا الأمر من قبيل التفسير بالرأي الذي نهى الإسلام عنه، والذي يرفضه أيضًا العقل والمنطق، مع ذلك ليس من الصواب الجمود على المفهوم الابتدائي للألفاظ، مع وجود بعض القرائن العقلية أو النقلية الواردة بهذا الخصوص والذي يوجب الابتعاد عن المفهوم الأصلي للكلام.

ويبدو أنّ مثل هذه المفاهيم بشأن حوادث آخر الزمان ليست بدعًا من المفاهيم الكنائية، ومن ذلك ما ورد من خبر أنّ «الشمس تطلع من المغرب»[١].

وهذا من أعقد الأُمور المرتبطة بهذه القضية، والذي لا ينسجم ظاهرًا مع العلم الحديث؛ ذلك لأنّ طلوع الشمس من المغرب يعني تغيير مسيرة حركة الأرض. فلو حصل هذا الأمر فجأة، لقذف بمياه البحار وكلّ ما على سطح الكرة الأرضية خارجًا، ولاضطرب كلّ شيء، ولا يبقى شيء من الحياة. وإن حصل بالتدريج فإنّ طول الليل والنهار يزيد حتّى يتجاوز الشهر والشهرين، ويؤدي أيضًا إلى اضطراب الكائنات على سطح الكرة الأرضية.

لكنّ هنالك تفسيرًا رائعًا في ذيل الحديث الوارد بشأن الدجّال يفيد كنائية هذه العبارة. فراوي الحديث هو «نزال بن سبرة»، سأل «صعصعة بن صوحان» أنّ أمير المؤمنين عليًا عليه السلام

(١) بحار الأنوار، ج٥٢، ص١٩٤.

قال في آخر كلامه عن الدجّال: «لا تسألوا عن الحوادث التي تقع بعد ذلك...»، فما كان مراده؟

قال صعصعة: «إنّ الذي يصلّي خلفه عيسى بن مريم هو الثاني عشر من العترة، التاسع من ولد الحسين بن علي، وهو الشمس الطالعة من مغربها»[١].

وعليه، فليس هنالك ما يدعو إلى الدهشة في أنّ للدجّال الذي ورد بالصفات المذكورة بعدًا كنائيًا. والسؤال هو كيف تفسير ذلك؟

والجواب: لا يبعد أن يكون الدجّال بالصفات المذكورة إشارة إلى قادة المدارس المادية في العالم، للأسباب الآتية:

١- لهؤلاء عين واحدة هي العين الاقتصادية والحياة المادية. فهم لا يرون سوى بعدًا واحدًا هو المنافع المادية، ويعتمدون مختلف الحيل والألاعيب والسياسات الاستعمارية بغية تحقيق أهدافهم، فهم دجّالون ومخادعون، فقدوا أعينهم المعنوية والإنسانية.
إلاّ أنّ هذه العين المادية حادة جدًّا، تحقق تطورات باهرة في المجالات الصناعية؛ حتّى تفوقوا على كلّ من سواهم.

٢- لديهم الوسائل النقلية في الغاية السرعة، والتي تطوي الأرض في مدّة قياسية بسرعة ربّما تفوق سرعة الصوت.

(١) بحار الأنوار، ج٥٢، ص١٩٥.

٣- إنّهم يدّعون الألوهية عمليًا، ويسيطرون على كافة المقدرات، ورغم ضعفهم وعجزهم إلاّ أنّهم يغزون الفضاء ويصعدون إلى القمر، مع العلم أنّ هزة أرضية بسيطة أو إصابة إحدى خلايا أجسامهم بالسرطان كافية للقضاء عليهم، ورغم كلّ ذلك وعلى غرار فرعون يدعون الألوهية والربوبية.

٤- يغوصون في مياه البحار بغواصاتهم المتطورة، وينطلقون بوسائلهم السريعة بمسيرة الشمس (وأحيانًا يتقدمون على مسارها). بين يديهم معامل ضخمة، يخرج منها الدخان، وخلفهم جبال من المنتجات الصناعية والمعادن الغذائية (تراها الناس مواد غذائية وأطعمة سالمة، والحال ليس لها قيمة غذائية، وغالبًا ما تكون أطعمة غير سالمة).

٥- يصاب الناس بقحط وشح في المواد الغذائية - لبعض الأسباب من قبيل الاستغلال والاستعمار والتمييز العنصري وهدر الثروات الضخمة على الأسلحة، ونشوب الحروب، وما تؤدي إليه من دمار شامل وأضرار مادية جسيمة تنعكس سلبًا على حياة الناس - حتّى يموت البعض جوعًا، والدجّال بصفته العنصر الأصلي في هذه الاضطرابات يستغلّ هذه الأوضاع فيسارع إلى إغاثة المحرومين والضعفاء بغية ترسيخ دعائمه الاستعمارية.

كما ورد في بعض الروايات، أنّ كلّ قطعة من وسيلة الدجّال تتضمن نغمة خاصة وجديدة، وهو الأمر الذي ينطبق على كلّ

هذه الوسائل المعتمدة في اللهو واللعب، والتي نشاهدها في البيوت والحدائق العامة وشواطئ البحار.

والمهم في الأمر هو عدم انخداع العناصر الثورية، أي جنود المصلح العظيم المهدي الموعود بتلك المظاهر المزيفة، وعدم الغفلة عن استغلال أية فرصة بغية الاندفاع بكلّ حزم وممارسة النهضة الإصلاحية في إشاعة العدل والحقّ.

طبعًا ما ذكرناه تفسير احتمالي للدجّال على أساس بعض القرائن المؤيدة، إلاّ أنّ قبوله أو عدم قبوله لا يضرّ بأصل الموضوع، في أنّ لصفات الدجّال بُعدًا كنائيًا، وهو ليس بإنسان يمتاز بهذه الصفات.

٣ - ظهور السفياني:

ورد ظهور «السفياني» كظهور «الدجّال» في أغلب مصادر الفريقين بصفته إحدى علامات ظهور المصلح العالمي العظيم، أو إحدى حوادث آخر الزمان[١].

وإن أشارت بعض الروايات إلى أنّ السفياني شخص معين من آل أبي سفياني وأحد ولده؛ إلاّ أنّه يستفاد من بعضها الآخر أنّ السفيان ليس فردًا معينًا، بل إشارة إلى صفات وملامح تتجلى في بعض الأفراد على طول التاريخ. فقد ورد عن الإمام علي بن

(١) راجع بحار الأنوار، ج٥٣، ص١٨٢، ١٩٠، ١٩٤، ٢٠٦، ٢٠٨ و٢٠٩ وسائر المصادر.

الحسين عليه السلام أنّه قال: «أمر السفياني حتم من الله ولا يكون قائمًا إلاّ بسفياني»[١].

ويتضح من هذا الحديث أنّ للسفياني جانبًا توصيفيًا لا شخصيًا، وصفاته هي خططه وخصائصه، كما يستفاد أنّ هنالك سفيانيًا (أو أكثر) تجاه كلّ رجل ثوري ومصلح حقّ.

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «أنا وآل أبي سفيان أهل بيتين تعادينا في الله. قلنا صدق الله وقالوا كذب الله». قاتل أبو سفيان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقاتل معاوية عليًّا بن أبي طالب عليه السلام، وقاتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي عليه السلام والسفياني يقاتل القائم»[٢].

وقد تعرفنا في المبحث السابق على دور الدجّالين في مضادة الثورة الإصلاحية.

ونحاول هنا التعرف على خطط السفياني الشيطانية؛ وذلك لضرورة التعرف على العناصر المناوئة كافّة والمناصرة للمشروع العالمي بغية تحقق المفهوم الصحيح للانتظار.

يمتاز أبو سفيان زعيم السلسلة السفيانية ببعض الصفات مثل:

١- الثراء الفاحش الذي ناله من خلال غصب حقوق الآخرين والمعاملات الربوية المحرمة.

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٢، ص١٨٢.

(٢) بحار الأنوار، ج٥، ص١٩٠.

٢- القدرة والقوة التي حصل عليها بواسطة الطرق الشيطانية، فتزعّم الأحزاب الجاهلية في مكّة ونواحيها، وكانت خلاصة شخصيته في هذين الأمرين.
وكانت له حكومة في مكّة قبل انبثاق الدعوة، إلاّ أنّ هذه الحكومة تهدّدت بالزوال بعد ظهور الإسلام؛ ذلك لأن الإسلام إنما يعادي هؤلاء الأفراد الذين يتمتعون بالقدرات الشيطانية. ومن هنا فقد كان أبو سفيان عدوًا لدودًا للإسلام.

٣- كان أبو سفيان مظهر النظام الطبقي الظالم في المجتمع المكّي، ولذلك بذل كلّ دعمه وإسناده للوثنية وعبادة الأصنام. فالأصنام أفضل وسيلة لإثارة النفاق وتخدير الآخرين، وبالنتيجة التسلّط عليهم وفرض السيطرة.

وسرّ معارضته للإسلام - كما قلنا - أنّ الإسلام زعزع أركان سلطته وكشف النقاب عن شخصيته المريضة. ومن هنا، فلم يألُ جهدًا من أجل القضاء على الدعوة الإسلامية. لكن انتهى الأمر إلى تحطيم كافة معاقل قوته؛ ليعيش التقوقع والانزواء إلى الأبد، على الرغم من بعض تحركاته السرية المشبوهة.

وقد نقل كلّ هذه الصفات - من خلال التربية والوراثة - إلى ولده معاوية، ومن ثمّ حفيده يزيد، فتابعا خطط أبي سفيان - بصورة أُخرى - وإن فشلا في تحقيق أهدافهما.

كان أبو سفيان رجلًا رجعيًا بمعنى الكلمة شعر بالهلع من الدعوة الإسلامية؛ ذلك لأنّ الإسلام تضمن المشاريع الإصلاحية

الشاملة التي غيّرت الأوضاع الفاسدة كافّة في ذلك المجتمع المتخلف، وهو التغيير الذي يطيح بهذه الرموز الفاسدة كأبي سفيان وأمثاله.

ومن هنا، ندرك سبب سعي ولده وأسلافه للقضاء على الإسلام، واعادة الأُمّة إلى العصر الجاهلي، وإن لم يُكتب لهم النجاح؛.مع ذلك فقد سدّدوا ضربات موجعة حالت دون تطور المسلمين وانتشار الإسلام.

ولا نريد الابتعاد عن أصل الموضوع، فقد طالعتنا الأحاديث السابقة أنّ ظهور أبي سفيان بهذه الصفات لم يكن من خصائص النهضة الإسلامية. فإزاء كلّ قائم ومصلح هناك أبو سفيان بتلك الخصائص، من قبيل الثراء والقدرة والظلم، والرجعية وإشاعة الخرافات، والذي يسعى إلى القضاء على جهود المصلح وخططه الإصلاحية، أو على الأقلّ الحيلولة دون انتشار الإصلاح.

وسيكون هنالك سفياني أو أكثر يقف بوجه المصلح العالمي العظيم «المهدي»، والذي يسعى بكلّ ما أُوتي من قوة لعرقلة المسيرة الإصلاحية للمهدي، والحيلولة دون فناء الأنظمة الطبقية الظالمة التي تسعى لاستغلال الأُمّة، ونهب ثرواتها وخيراتها.

ولعلّ الفارق الرئيسي بين السفياني والدجّال أنّ الدجّال يعتمد الزيف والخداع والحيلة في ممارساته الشيطانية، بينما يعتمد

السفياني على قدراته الجهنمية الهدّامة في أفعاله، حيث ورد في بعض الأخبار أنّه يستولي على المناطق العامرة في الأرض[١].

والذي ندرك نظيره في حكومة أبي سفيان ومعاوية ويزيد كما يفيد التاريخ.

نعم، ليس هنالك ما يمنع أن يكون السفياني الذي يقف آخر الزمان بوجه المصلح العالمي الكبير «المهدي» من ولد أبي سفيان وأحفاده الذين ينتمون إليه كما ورد في بعض الأخبار.

لكنّ الأهم من مسألة النسب، أنّ مشاريعه وصفاته وخصائصه وجهوده ومساعيه كنظيرتها لدى أبي سفيان. وستكون عاقبة هذا السفياني كسائر من سبقه، الركوع أمام حركة المهدي العالمية، والاستسلام لها، وتذهب كلّ جهوده ومساعيه أدراج الرياح.

والأهمّ من كلّ ذلك أن يتعرف الناس على نماذج «الدجّال» و«السفياني». وينطوي هؤلاء السفيانيون - بغض النظر عن العلامات المذكورة - على صفة أُخرى، واضح نموذجها في التاريخ الإسلامي، وهي: أنّهم يقصون الصلحاء من مسرح الحياة، ويستعيضون ببعض الأفراد الطالحين والمنحرفين، يتقاسمون بيت المال - كما ورد في حكومة أسلاف أبي سفيان - مع بطاناتهم وذويهم، ويعتمدون التميز بين الناس وهضم حقوقهم، وهكذا يمكن من خلال هذه الصفات التعرّف عليهم.

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٢، ص٢٦.

فالدجّالون يشكّلون الصفوف المشبوهة في الجبهة المناهضة للنهضة، أما السفيانيون فيمثلون الصفوف المضادة للنهضة علانية، ولكليهما في الواقع موقف واحد. وبالطبع، ليس هنالك من ضمانة لتقدّم هذه النهضة وديمومتها دون القضاء على هذه الجبهة.

الفصل السادس:

العقيدة الشيعية في المهدي عجل الله فرجه الشريف والأسئلة التي تفرزها تلك العقيدة

أولًا:
المهدي ثاني عشر خلفاء النبي ﷺ

ما أوردنـاه إلـى حـدّ الآن فـي هـذا الـكـتـاب بـشـأن «الـمـصـلـح الـعـالـمـي المطلق» و«مشاريع المهدي الثورية» كانَ جانبًا كليًا عقليًا، وآخر إسلاميًا كليًا. إلاّ أنّ هناك بعض الخصائص التي تتميز بها العقيدة الشيعية المستندة لمدرسة أهل البيت عليهم السلام. وسنسلط الضوء هنا على بعض هذه الخصائص ومنها:

١- عقيدة الشيعة هي أنّ المهدي هو ثاني عشر خلفاء النبي ﷺ، وابن الإمـام الـحـسـن الـعـسـكـري عليه السلام، اسمه محمّد وكنيته أبـو الـقـاسـم، ولـقـبـه الـمـهـدي وصـاحـب الـزمـان والقائم.

٢- المهدي حيّ الآن، وقد مضى عليه أكثر من ألف سنة حيث ولد سنة ٢٥٥هـ.

٣- إنّ المهدي رغم حياته الآن، إلاّ أنّه غائب عن الأنظار، أي رغم أنّه يتمتع بحياة طبيعية، إلاّ أنّه يعيش بصورة مجهولة في هذا العالم.

أمّا سائر الفرق الإسلامية - سوى القلّة - فتعتقد أنّه سيولد آخر الزمان، وإن كان من نسل النبي ﷺ. وعليه، فهي لا تقول بهذا العمر المديد له والغيبة الطويلة. وبالطبع، فإن القليل من العامّة ترى أنّه من ولد الإمام الحسن العسكري عليه السلام.

على كلّ حال فإن عقيدة الشيعة تثير ثلاثة أسئلة:

السؤال الأوّل:

هو السؤال الوارد بشأن طول العمر والمطروح منذ قديم الزمان وهو: كيف يمكن أن يعمر الإنسان هذه المدّة، والحال لم نر من تجاوز عمره المئة إلى المئة وعشرين سنة، فكيف يمكن توجيه ذلك العمر الطويل على ضوء الأعمار المتعارفة، والتي نشاهدها لدى الناس من حولنا؟

السؤال الثاني:

بشأن فلسفة هذه الغيبة الطويلة، وهو: ما سرّ غيبة زعيم المجتمع الإسلامي كلّ هذه المدّة المديدة؟

السؤال الثالث:

الذي يرتبط بالسؤال الثاني - وإن كان مستقلًا - حول فائدة وجود الإمام في عصر الغيبة، فما الدور الذي يلعبه هذا الزعيم الذي لا ارتباط له بأتباعه، ولا يستطيع الناس رؤيته والاستفادة من زعامته؟ بعبارة أُخرى، إنّ حياته في هذه المدة حياة خصوصية وشخصية، لا اجتماعية وفي إطار الزعامة.

ينبغي أن نخوض بادئ الأمر في أدلة الشيعة بشأن الاعتقادات الثلاثة، ثمّ نرى كيف تتمّ الإجابة عن الأسئلة الثلاثة.

لا بدّ هنا من ذكر هذه النقطة، إنّ الأدلة العقلية لا يمكنها أبدًا التركيز على شخص معين، وغالبًا ما تكون نتائج هذه الأدلّة كلية.

وروايات العامّة في المهدي ﷺ غالبًا ما تكون كلية، ولا تتحدّث سوى عن شخص من أهل بيت النبي ﷺ، لقبه المهدي، واسمه محمّد (على غرار اسم النبي)؛ باستثناء بعض الروايات التي صرحت بخصائص أبيه أو أجداده، والتي تنطبق على عقائد الشيعة، كهاتين الروايتين:

١- روى الشيخ سليمان القندوزي من علماء العامّة في كتابه المعروف «ينابيع المودة» عن كتاب «فرائد السمطين» عن ابن عباس: إنّ رجلًا يهوديًا دخل على النبي ﷺ، وجعل يسأله عدّة أسئلة، وما إن سمع الأجوبة حتّى أشرق نور الإسلام في قلبه، وكان ممّا سأل: «مَن وصيُّك»؟ فلكلّ نبي وصيّ ووصيّ موسى يوشع بن نون.

«إنّ وصيـيّ علي بـن أبـي طالـب وبـعـده سبطاي الحسن والحسين تتلوه تسعة أئمّة من صلب الحسين».

فسأله اليهودي عن أسمائهم، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إذا مضى الحسين فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمّد، فإذا مضى محمّد فابنه جعفر، فإذا مضى جعفر فابنه موسى، فإذا مضى موسى فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمّد، فإذا مضى محمّد فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه الحسن، فإذا مضى الحسن فابنه الحجّة محمّد المهدي فهؤلاء اثنا عشر...».

ثمّ سأله عن كيفية وفاتهم فأجابه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثمّ قال: «وأنّ الثاني عشر من ولدي يغيب حتّى لا يُرى، ويأتي على أُمّتي بزمن لا يبقى من الإسلام إلاّ اسمه، ولا يبقى من القرآن إلاّ اسمه، فحينئذٍ يأذن الله تبارك وتعالى له بالخروج فيظهر الله الإسلام به ويجدّده...».

فلما اعتنق اليـهودي الإسـلام، أنشـد شعـرًا أشـار فيه إلى أوصياء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حتّى قال: «آخرهم يسقى الظماء وهو الإمام المنتظر»[١].

٢- كما ورد في هذا الكتاب عن «عامر بن وائلة» آخر من مات من صحب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، نقلًا عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنّ النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: «يا علي أنت وصيي، حربك حربي، وسلمك سلمي، وأنـت الإمـام وأبـو الأئـمّـة أحـد عـشر الـذيـن هـم المـطـهرون

(١) ينابيع المودة، ص٤٤٠.

المعصومون ومنهم المهدي الذي يملأ الأرض قسطًا وعدلًا»[١].

أمّا عن طرق أهل البيت فقد وردت روايات عدّة في المهدي ﷺ، وأنّه الحادي عشر من ولد علي عليه السلام، والتاسع من ولد الإمام الحسين وابن الإمام الحسن العسكري. لا يسعنا ذكرها جميعًا في هذا الكتاب الذي راعينا فيه الاختصار، وعليه نشير إليها باختصار، ومن أراد المزيد فليراجع كتاب «منتخب الأثر في أحوال الإمام الثاني عشر». فقد تضمن هذا الكتاب روايات بشأن والد وأجداد المهدي، ورد أغلبها عن طريق أهل البيت، ومنها:

٩١ رواية في أنّ الأئمّة ١٢ أولهم علي عليه السلام وآخرهم المهدي ﷺ.

٩٤ رواية أنّ آخر الأئمّة المهدي ﷺ.

١٠٧ روايات أنّ الأئمّة ١٢ تسعة منهم من ولد الحسين عليه السلام وتاسعهم قائمهم.

٥٠ رواية في أسماء الأئمّة الاثني عشر، وأنّ آخرهم المهدي. وهكذا يمتاز أتباع هذه المدرسة، وعلى أساس المدارك المذكورة بتشخيصهم للمهدي عليه السلام بجميع خصائصه.

والجدير بالذكر هنالك العديد من الأحاديث في مصادر

---

(١) ينابيع المودة، ص٨٥ طبعة اسطنبول.

العامة الروائية المعتبرة والمشهورة، في أنّ الأئمّة اثنا عشر (بشكل كلي وعام). وكما أشرنا سابقًا، فإنّه يتعذر التفسير المنطقي لهذه الروايات سوى من خلال الإقرار بنظرية الشيعة.

وقد عبّرت بعض الأحاديث كحديث «صحيح البخاري» و«صحيح الترمذي» عن الأئمّة باثني عشر أميرًا[١]، واثني عشر خليفة[٢]. وفي «صحيح مسلم»، وفي صحيح أبي داود كذلك اثني عشر خليفة[٣]. ووردت في مسند أحمد بعشرات الطرق اثني عشر خليفة.

فهل يمكن إنكار كلّ هذه الأحاديث في المصادر المعتبرة؟!

هل يكتمل هذا العدد من خلال إضافة خلفاء بني أُمية كمعاوية ويزيد وعبد الملك، أم بني العباس كهارون والمأمون والمتوكّل إلى الخلفاء الأربعة؟!

والسؤال هو: من هم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر الذين سمّاهم النبي الأكرم ﷺ ومدحهم؟ لا بدّ من جواب منطقي - من قبل غير أتباع مدرسة أهل البيت الذين يؤمنون بالأئمّة الاثني عشر - حيث يتعذّر اعتبار خلفاء بني أمية والعباس الذين حرفوا الحكومة الإسلامية عن مسارها الصحيح وارتكبوا مختلف الجرائم والجنايات للقضاء على الإسلام، وتشويه مفاهيمه الحقّة، هم أوصياء النبي ﷺ.

---

(١) صحيح البخاري، ص١٧٥ طبعة مصر، صحيح الترمذي، ج٢، ص٤٥ طبعة نيودلهي.

(٢) صحيح مسلم، ج٢، ص١٩١ طبعة مصر.

(٣) صحيح أبي داود، ج٢، كتاب المهدي، ص٢٠٧ طبعة مصر.

ثانيًا:
الأسئلة الثلاثة المهمة

١ - سر طول العمر

طـرح الإشـكـال: قـلـنـا أشـكـل عـلى عقيدة الشيعة في المهدي، ومضمون الإشكال: لو كان ابن الإمام العسكري وولد من أُمّه نرجس سنة ٢٥٥هـ وما زال حيًّا إلى الآن، فهذا يعني مضيّ أكثر من ألف سنة على عمره، والحال ليست مشاهداتنا اليومية تدلّنا على مثل هذا العمر لبعض الأفراد، ولا يقرّ ذلك العلم المعاصر، كما لم يتضمن التاريخ نموذجًا لذلك.

مناقشة وتحقيق:

نوافق القول السابق في أنّ الأعمار الطبيعية والعادية التي نراها غالبًا لدى الأفراد لا تتجاوز المئة عام، ويندر أن تبلغ مئة وعشرين، ومن بلغ في عصرنا المئة والخمسين

أو الستين من عمره فذلك يعتبر من نوادر العالم[١].

ولكن لا يمكن التسليم بهذه القضية على مستوى البحث العلمي والتحقيق بشأن طول العمر، ولا بدّ من تسليط الضوء على الأُمور الآتية:

- هل للعمر الطبيعي مقدار معين؟ ماذا يقول علم الفيزيولوجيا بهذا الخصوص؟
- هل هناك طريق لإطالة عمر الإنسان؟
- هل يشاهد اليوم بعض الأفراد الاستثنائيين على صعيد البنية البدنية والروحية والعضوية واختلاف الحواس وسائر الصفات العامة البشرية بالنسبة إلى الآخرين أم لا؟
- هل ورد في التاريخ بعض الأفراد الذين عمّروا مدة طويلة أكثر ممّا حيث عليه اليوم؟
- والأهم من كلّ ذلك، لا بدّ من الوقوف عند الأفراد الذين طرحوا هذا الإشكال وآرائهم الدينية المختلفة؟
- هل للعمر الطبيعي مدّ ثابت؟

للبطارية الصغيرة عمر معين؛ مثلًا تعمل ٢٤ ساعة ثمّ تنتهي

---

(١) التقيت قبل مدّة رجلاً في محافظة كرمان سألني عن فدية عدم صيام شهر رمضان لعدم استطاعته، فلما سألته عن عمره قال ٢٩ سنة، ولما رأى دهشتي قال ١٢٩ سنة فإنّي لم أحسب المئة، نعم عمري ١٢٩ سنة.

قوتها. كما يعمل المصباح الكهربائي مثلًا ألف ساعة، ثمّ يحترق. وتعمر السيارة مثلًا ٢٠ سنة. وهكذا سائر الصناعات البشرية التي تمتاز بعمرها المعيّن ولها حدّ متوسط. طبعًا لهذه الأجهزة عمر أطول إن كانت هناك عناية بها، والعكس صحيح.

ومن هنا، لدينا عدة أعمار في عالم الطبيعة، فهناك بعض الذرات التي لا تعمر أكثر من واحد على الألف من الثانية، وربّما مئة على المليون من الثانية، بينما هناك بالمقابل عمر الكرة الأرضية الذي قد يبلغ خمسة آلاف مليون سنة.

وعليه، لا بدّ أن نرى هل عمر الكائنات الحيّة في الطبيعة على غرار عمر الأجهزة الصناعية؟ مثلًا، متوسط عمر الإنسان ٨٠ سنة، الطير ٥ سنوات، الحشرة عدة أشهر، والشجرة ١٥٠ سنة، وبراعم الورد ٦ أشهر؟

كانت طائفة من العلماء في السابق تعتقد بوجود عمر طبيعي في الموجودات الحية، مثلًا:

- بافلوف: يعتقد أنّ العمر الطبيعي للإنسان ١٠٠ سنة.
- مجينكوف: يعتقد أنّ العمر الطبيعي للإنسان ١٥٠ - ١٦٠ سنة.
- كوفلاند: الطبيب الألماني الذي يعتقد أنّ متوسط عمر الإنسان ٢٠٠ سنة.
- فلوغر: الفيزيائي المشهور الذي يعتقد أنّ متوسط عمر الإنسان ٦٠٠ سنة.

- وأخيرًا الفيلسوف والعالم الإنجليزي بيكن الذي يعتقد أنّ عمر الإنسان ١٠٠٠ سنة.

إلاّ أنّ هذه الفكرة مرفوضة اليوم من قبل علماء الفيزيولوجيا؛ حيث أبطلوا الحدّ الثابت للعمر الطبيعي. قال البروفسور «اسميث» - أستاذ جامعة كولومبيا -: «كما كسر حاجز الصوت وظهرت الوسائط النقلية التي تفوق سرعة الصوت فإنّنا سنشهد في خاتمة المطاف كسر حاجز سن الإنسان».

والدليل الحي الذي يمكن إقامته لإثبات هذه الفكرة، التجارب التي أجراها العلماء على مختلف الحيوانات والنباتات؛ حتّى تمكنوا في ظلّ بعض الظروف الاختبارية مضاعفة عمر بعض الكائنات الحية إلى اثني عشر ضعفًا.

فمثلًا، التجارب التي أجريت على بعض النباتات التي لا تعمر أكثر من أسبوعين، أثبتت إمكانية مضاعفته إلى ستة أشهر.

ولو افترضت مثل هذه الزيادة بالنسبة إلى عمر الإنسان، فإنّه يمكن أن يعمر بعض الأفراد لأكثر من ألف سنة.

والتجربة الأُخرى التي أجروها على بعض حشرات الفاكهة، والتي لها عمر قصير جدًّا، أدّت إلى زيادتها بنسبة تسعمئة ضعف.

ولو أصبح هذا الازدياد العجيب ممكنًا بالنسبة إلى الإنسان لأمكنه أن يعمر إلى أكثر من سبعين ألف سنة.

طبعًا، لا نرغب بمثل هذا العمر المتعب ،ولا نقبل به وإن منحناه مجانًا، فنحن كما قيل شعرنا بالإعياء من تعميرنا ليومين، فما عساك تفعل يا خضر وأنت بهذا العمر الخالد الأبدي؟!.

ولو فرض قبولنا بهذا العمر، فإن الكرة الأرضية ليست مستعدة لقبول كلّ هذه الأعداد. نعم، هدفنا الدراسة العلمية لقضية طول العمر. ونعلم أنّ أغلب علماء البيولوجي اليوم يعكفون على دراسة مسألة طول عمر الإنسان، فلو لم يكن هذا الأمر ممكنًا، لبدت هذه الدراسات عبثية.

ويعتقد علماء الأغذية أنّ لطول العمر علاقة وطيدة بأُسلوب التغذية والظروف الإقليمية، فقد أجروا بعض التجارب والدراسات لطول عمر ملكة النحل التي تعدل أضعافًا عدّة الملكات العادية، فتوصلوا إلى أنّ هذا الموضوع معلول لطعام معين تعدّه العاملات لتغذية الملكة، والذي يختلف عن العسل المتعارف، فاعتقد البعض أنّ أعداد مقدار أكبر من هذا الطعام الجلاتيني يمكنه أن يضاعف عمر الإنسان.

ويقول علماء النفس إنّ طول عمر الإنسان يعتمد إلى حدّ كبير على طريقة تفكيره وعقائده، والعقائد الروحية البناءة والمستقرة تسهم في إطالة عمر الإنسان.

ويرى فريق من الأطباء أنّ الشيخوخة نوع من التوعك الذي يصيب الإنسان إثر تصلب الشرايين أو بعض الاختلالات العضوية لبدنه، ولو استطعنا التغلب على هذه العوامل عن طريق التغذية

الصحيحة والأدوية المؤثرة لقضينا على الشيخوخة، وتمتعنا بعمر طويل.

وكلّ هذه الأُمور تثبت بوضوح أنّ قضية العمر الطبيعي المحدود ليست أكثر من خرافة، ولا يمكن التكهن بعمر للكائنات الحية.

والحقّ أنّ قضية إطالة عمر الإنسان أصبحت أكثر جدية إثر الرحلات الفضائية والصعود إلى القمر؛ ذلك لأنّه أصبح من المسلم أنّ أعمارنا القصيرة لا تتناسب وطي المسافات النجومية العظيمة. فالتقدم خطوة واحدة في هذا العالم الفسيح بالسفن الفضائية الحديثة يتطلب أحيانًا آلاف السنين من العمر، وأكثر من ذلك بعشرات آلاف السنين للوصول إلى الطرق الأبعد. ومن هنا، فكّر العلماء في طريقة أُخرى لإطالة عمر الإنسان تتمثل في التجميد.

ولعلّ هذا الموضوع كشف لأوّل مرة من خلال مشاهدة بعض الكائنات الحية التي احتفظت بحياتها خلال عملية التجميد الطبيعي. مثلًا: عثروا قبل مدة على حوت متجمد في وسط الثلوج القطبية؛ حيث يفيد وضع طبقات الثلج أنّها تعود لقبل خمسة آلاف سنة. وظنوا في البداية أنّه ميت، وحين وضعوه في ماء مناسب أخذ بحركة مثيرة الدهشة، فاتضح أنّه كان حيّ منذ خمسة آلاف سنة؛ غير أنّها كان يعيش تلك الفترة بصيصًا من الحياة! ومن هنا فكّروا في أن يجرِّبوا هذه الطريقة على

الإنسان، فمثلًا، لو بعثنا بجالس في سفينة فضائية إلى نقطة بعيدة، وعرّضناه لحالة تجميد ويصل مقصده بعد مئات أو آلاف السنين، فإنّ بدنه سيعود إلى حالته العادية تدريجيًا، وستحلّ مشكلة طول العمر في الرجلات الفضائية.

وقد فكر بعض الأطباء الآن بهذه الطريقة بالنسبة إلى المرضى الذين لم يتوصل الطب إلى سبيل علاجهم؛ كأن يكون المريض مصابًا بالسرطان، فيرون ضرورة تجميد هؤلاء المرضى في نوم عميق - أو بما يفوق النوم - ومثلًا حين سيكشف علاجه بعد قرنين يعادون إلى حالتهم الأصلية ويخضعون للعلاج.

وتفيد كلّ هذه الأبحاث والدراسات أنّه ليس هنالك من حدّ ثابت للعمر بالنسبة للإنسان وسائر الكائنات الحية من وجهة النظر العلمية.

الاستثناء من الأفراد:

لو أغمضنا عن البحث السابق، ونفرض أنّ للإنسان بطبعه الابتدائي حدًّا ثابتًا من العمر؛ مع ذلك فإنّه لا يمكن تعميم هذا الموضوع على كافة الأفراد، وذلك لوجود الاستثناءات دائمًا بين الكائنات الحية، والتي لا تنطبق على الضوابط السائدة في العلوم الطبيعية والتجريبية، حتّى أنّ العلم ليعجز أحيانًا عن تفسيرها.

فقد لوحظ بعض الأفراد الذين يتمتعون بحواس وإدراكات وطاقات استثنائية خارقة للعادة. فقد نلاحظ بعض الأفراد لنوع خاص من الأشجار أو الحيوانات التي لها نمو معين وعمر كذلك،

التي تتجاوز جميع ضوابطها، وتبدو بصيغة استثنائية مثلًا:

١- شاهد بعض السياح الذين زاروا اسكتلندا شجرة عجيبة ومذهلة يصل قطرها إلى ٩٠ قدمًا، ويقدر عمرها بخمسة آلاف سنة.

٢- يبلغ طول شجرة في كاليفورنيا مئة متر، وقطرها في الجانب الأسفل عشرة أمتار ويقدر عمرها بستة آلاف سنة.

٣- هناك شجرة من بين الأشجار التي تنبت في جزر الكناري من نوع (الصندم) لفتت انتباه العلماء؛ الشجرة التي يقال إنّه منذ اكتشاف هذه الجزيرة - أي قبل خمسمئة سنة - لم تسجل إلى حد الآن أيّة حالة نمو وتغيير. مع ذلك، يبدو أنّها تتمتع بعمر طويل؛ بحيث لا يبدو عليها آثار مضي الزمان. ومن هنا، يعتقد بعض المتخصصين أنّها كانت موجودة قبل خلق آدم.

٤- توجد بعض الأشجار في المناطق الاستوائية المعمرة كثيرًا، ولا ينتهي عمرها أبدًا فهي في حالة غضة دائمًا.

٥- شوهدت بعض الحلزونات المعمرة آلاف السنين، كما اكتشف العلماء حيتان يقدّر عمرها بثلاثة ملايين سنة.

٦- ترى بعض الأفراد بين الناس يقومون ببعض الأعمال المذهلة التي يصعب الوثوق بها حتّى لمن يراها. فمن منّا لم يقرأ في الصحف بعض الأخبار بشأن الأفراد الذين يقومون ببعض الأعمال التي تفوق البصر كأن يطوي بعض

الأجسام الفلزية[١] كالملعقة والشوكة دون أن يشير لها بيده. وقد قاموا بتلك الأفعال أمام أنظار المراسلين، حتّى صورهم التلفاز الإنجليزي حتّى أذعن الإنجليز بعدم وجود خدعة في مثل هذه الأفعال. والواقع هو أنّ هذه الأُمور استثنائية حقًّا.

ولعلّ الجميع سمع عن ذلك الفتى الإيراني الذي يتناول المصباح والزجاج وكأنّها أطعمة، والحال لو تناول ذلك بعض الأفراد العاديين لانبغى خضوعهم لعملية جراحية. قرأت في بعض الصحف عن شخص يتمتع بقوّة خارقة تمكن من ترويض الحيوانات الوحشية والمفترسة وهو يقترب منها دون خوف.

وقيل في سيرة ابن سينا ذلك الطبيب والفيلسوف المعروف أنّه كان يحفظ في المكتب كلّ ما كان يقرؤه التلاميذ للأُستاذ. وقد ألمّ في بخارى في العاشرة من عمره ببعض العلوم التي أثارت دهشة الآخرين، وتصدى في الثانية عشرة من عمره للفتوى، فكان يفتي في بخارى.

ألف في السادسة عشرة كتابه «القانون في علم الطب»، وهو الكتاب الذي درس لقرون في الجامعات الأوروبية الطبية، أما الأخبار التي نقلت في حدّة نظره وشدّة سمعه فمما تثير الدهشة، ولا يسعنا التطرق إليها[٢].

---

(١) الأجسام المعدنية من الحديد أو النحاس أو الألمينيوم.

(٢) راجع كتاب هدية الأحباب وسائر التواريخ.

كلّ هؤلاء أفراد استثنائيون يتمتعون ببعض الخصائص التي يعجز عن تفسيرها العلماء، كونها لا تنسجم مع الضوابط والمقررات السائدة لدى الجنس البشري، إلاّ أنّ عدم الانسجام هذا لا يمنع من أن نذعن لها ونقرّ بوجودها.

كما نقرّ من خلالها بقانون كلّي في أنّ ما نشاهده في «النباتات» و«الأحياء البحرية والصحراوية»، و«الناس» ليس بقانون عام ودائم؛ بل من الممكن أن يكون فيها بعض الأفراد الاستثنائيين بصفات خاصة خارقة للعادة سواء من حيث العمر أو القدرة الروحية والبدنية، ووضعها الاستثنائي لا يدلّ أبدًا على عدم علمية قبولها؛ بل لا بدّ أن نذعن بأنّ دائرة جميع المقررات والضوابط التي يتبناها العلم تقتصر على الأفراد العاديين، والاستثناء من الأفراد خارجون عن دائرة هذه المقررات.

أصحاب الإشكال:

إن كان إشكال طول عمر المهدي عجل الله فرجه الشريف يطرح من قبل الماديين الذين يرون كلّ شيء بمنظار القوانين الطبيعية، فالجواب ما ذكرناه سابقًا، أمّا إن طرح من قبل أتباع الأديان كأتباع موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام والإخوة من أبناء العامة، فإضافة لما ذكرنا، فإننا نورد بعض الأُمور ومنها:

١- إنّهم يعتقدون بقدرة الله المطلقة وخوارق أنبيائه ورسله ومعجزاتهم. بعبارة أُخرى، يؤمنون بأنّ قوانين الطبيعة خاضعة لقدرة الله لا محكومة لها، فهل شفاء المرضى الذين يصعب

شفاؤهم عن طريق الطب، أو إحياء الموتى من قبل المسيح، أو سائر المعجزات من موسى عليه السلام بواسطة العصا - التي تعتبر قطعة خشبية غير ذات قيمة - واليد البيضاء وعبور النيل بتلك الطريقة الخارقة للعادة من الأُمور التي تنسجم مع الضوابط الطبيعية المتداولة؟

لا شكّ أنّ تفسير أتباع الأديان كافّة لمثل هذه الظواهر هو فاعلية الله في تأثير جميع القوانين والأسباب الطبيعية، وإن أراد شيئًا آخر تحقق، وإرادته تفوق العلل الطبيعية. ولو كان الوضع منذ البداية كذلك في أنّ الإنسان يحيا مرة أُخرى بعد الموت، أو الذي يولد أعمى يبصر بعد مضي مدة من الزمان، أو يكون متوسط عمر الإنسان ألف سنة، فهل هنالك من يتعجب من هذه الأُمور ويراها مخالفة للعقل؟... قطعًا لا!

وعليه، فإنّ نقض مثل هذه القوانين ليس بنقض لحكم عقلي ومنطقي، بل نقض لحالة عادية ألفِناها على ضوء مشاهدة الأفراد العاديين.

٢- يعتقد النصارى أنّ أعداء المسيح عليه السلام صلبوه ودفنوه، ثمّ نهض من بين الموتى وعرج إلى السماء وهو حيّ الآن. والمسلمون أيضًا يرونه حيًا، على الرغم من عدم قبولهم بصلب عيسى وقتله على ضوء القرآن، وهذا ما يقره علماء الإسلام كافّة - سوى القلّة القليلة - ولو كان هذا الاستثناء ليس خلافًا للعقل، ويمكن أن يحيا الإنسان مجددًا بعد موته ودفنه ويعمر ألف سنة، فكيف يعتبر الكلام عن عمر طويل فقط لأكثر من ألف سنة محالًا وغير منطقي؟!

٣- لا يوجد مسلم ينكر طول عمر نوح، ذلك لأنّه ممّا صرّح به القرآن في أنّه استغرق تسعمئة وخمسين سنة فقط في الدعوة إلى عبادة الله والتوحيد: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[1].

كما سمعنا الكثير عن الخضر وعمره الطويل.

العجيب أنّ طائفة أقرت بكلّ هذه المطالب، غير أنّها ما إن تصطدم بعقيدة الشيعة بشأن طول عمر المهدي حتّى تصاب بالذهول والدهشة والتنكر لذلك، وأحيانًا يكتفون بابتسامة عريضة تفيد تعارض هذه العقيدة مع العقل والمنطق!! وهذا نموذج واضح للازدواج!

ولكن كما قلنا، فإنّ مسألة طول العمر، وبغضّ النظر عن العقائد الدينية بشأن قدرة الله وقضية الإعجاز، فإنّها تنسجم تمامًا ومنطق العلوم الطبيعية الحديثة. أمّا المشكلة الوحيدة فهي ضرورة تحرير أفكارنا وأنفسنا من بعض الأحكام المسبقة والتعصبات المقيتة والعادات التي ألِفناها، والتسليم للدليل والمنطق والبحث العلمي.

إنّنا حين نسمع برجل نمساوي عمَّر أكثر من ١٤٠ سنة ولم يمرض ولو لمرّة واحدة! أو رجل كولومبي بلغ ١٦٧ سنة من عمره وما زال فتى! أو رجل صيني ابيضَّ شعره بعد ٢٥٣ سنة من عمره!

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ١٤.

نشعر بالدهشة؛ وذلك لأنّه يختلف عن العادة، ولكن لو كان هناك تركيز إعلامي على هذا الخبر، وورد بصورة قطعية فإنّنا سنقر به كحقيقة واقعة.

ولكن ما إن نقرأ في الحديث: «القائم هو الذي إذا خرج كان في سن الشيوخ ومنظر الشبان؛ قوي في بدنه»؛ حتّى يعتري البعض الحيرة والذهول. وهنا تتساءل الشيعة: لِمَ يعتقد البعض بطول عمر نوح والمسيح، ويذكرون تلك الخصائص العجيبة لابن سينا، ولا يتّسمون لمشاهدة انحناء الأجسام الفلزية بنظرة من شاب ورؤية الأشجار والأحياء المعمرة، ولكن ما إن يرد الحديث عن طول عمر المهدي ﷺ حتّى يقطب البعض ويخطف لونه ويتساءل على نحو الإنكار عن إمكانية ذلك.

زبدة الكلام إنّ مسألة طول العمر ليست من المسائل التي يمكن الإشكال عليها والتنكر لها على ضوء الأحكام المنطقية والعقلية.

٢ - فلسفة الغيبة

قلنا: السؤال الآخر الذي يطرح بشأن عقيدة الشيعة في المهدي ﷺ وموضوع غيبته الطويلة، والذي يرد بعد قبول أمان طول عمره. والسؤال: لماذا لا يظهر المهدي ﷺ وقد عمّ الظلم والفساد؟ لماذا لا يقوم ليملأها عدلًا وقسطًا؟ إلى متى هذا الجلوس ومشاهدة الظلم وسفك الدماء وطغيان حفنة من الغاشمين؟ لماذا هذه الغيبة الطويلة؟ تُرى ماذا ينتظر؟ وبالتالي ما سرّ هذه الغيبة الطويلة؟

ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ هذا السؤال وإن طرح عادة على الشيعة بشأن مسألة الغيبة، إلاّ أنّ أدنى تمعن سيفيد أنّ للآخرين نصيبًا من ذلك، أي يتوجه إلى سائر المؤمنين بظهور مصلح عالمي عظيم ينهض يومًا، ويملأ العالم بالعدل والقسط، وإن رفضوا عقيدة الشيعة في طول العمر والغيبة.

فالسؤال الذي يساورهم لِمَ لم يولد ذلك المصلح العظيم إلى حدّ الآن، وإنّ ولد لمَ لا ينهض ويملأ الدنيا بالعدل؟ وعليه فمن الخطأ أن يتوجه هذا الإشكال إلى خصوص الشيعة.

وبعبارة أُخرى، ممّا لا شك فيه أنّ مسألة طول العمر - البحث السابق - ومسألة وجود الإمام في الغيبة - البحث القادم - لَمِن الأسئلة التي تقتصر على الشيعة. أمّا مسألة تأخير ظهوره فمن المطالب التي ينبغي أن يفكر بها كافة المعتقدين بظهور ذلك المصلح العالمي، في أنّ الظروف العالمية مؤاتية فلماذا لا يحصل ذلك الظهور؟

على كلّ حال، لهذا السؤال جواب بسيط وآخر مسهب. الجواب القصير: إنّ وجود الزعيم الكفوء لوحده لا يكفي في قيام نهضة شاملة على مستوى عالمي، بل لا بدّ من استعداد عام، وللأسف ما زال العالم إلى حدّ الآن غير مستعد لتلك النهضة والحكومة، وما إن يبرز هذا الاستعداد حتّى يكون قيامه قطعيًا.

أما توضيح هذا الكلام:

أوّلًا: لا بدّ من الالتفات - كما أشرنا سابقًا - إلى أنّ قيام المهدي ﷺ كسائر نهضات جميع الأنبياء يتمّ عبر الوسائل والأسباب الطبيعية، وليس هنالك من مجال للإعجاز، فللمعجزات بعد استثنائي وليس لها من تدخل في المشاريع الإصلاحية للقادة الربانيين سوى في بعض المواقع الاستثنائية.

ومن هنا، كان الأنبياء يستفيدون من الأسلحة السائدة وإعداد الأفراد الأكفاء والاستشارة المطلوبة وطرح الخطط المؤثّرة والتكتيكات العسكرية اللازمة، وبالتالي توفير كافة الإمكانات المادية والمعنوية للنهوض بأهدافهم، ولا يفكرون في حدوث المعجزة في مجابهة العدو، أو إعداد الأنصار وتكاملهم.

وعليه، فلا بدّ أن يتحقق تنفيذ مشروع حكومة الحقّ والعدل على المستوى العالمي من خلال الاستعانة بالوسائل المادية والمعنوية اللازمة، سوى في بعض الحالات.

بعبارة أُخرى، إنّ المهدي ﷺ لا يأتي بمدرسة جديدة، بل ينفذ المشاريع الثورية السماوية التي لم تدخل حيّز التنفيذ. فرسالته لا تكمن في الإنذار والتربية والتعليم والتذكير، بل رسالته إجراء الأُصول والمبادئ كافّة في ظلّ حكومة العلم والإيمان، وهو الأمر الذي لا يتيسّر دون الاستعدادات المسبقة.

ثانيًا: يتضح من خلال ما تقدّم ما نقوله من عدم وجود مثل هذا

الاستعداد، وذلك لأنه ينبغي توفر أنواع عدّة من الاستعدادات وهي:

أ - استعداد القبول (الاستعداد النفسي):

لا بدّ أن يقف العالم كما ينبغي على مرارة هذا الوضع القائم والظلم السائد، ولا بدّ أن يلمسوا ضعف القوانين البشرية وعجزها عن تطبيق العدالة الاجتماعية. وينبغي أن يدركوا هذه الحقيقة وهي أنّ المشكلة لا تحلّ من خلال المعادلات المادية والضمانة الإجرائية والمقررات التي وضعها الإنسان، بل إنّ هذه المشكلة تسلك منحنى تصاعديًا في التعقيد بما يرهق كاهل البشرية.

ولا بدّ أن يفهم العالم أنّ الأزمات المعاصرة وليدة الأنظمة الراهنة، وهي الأنظمة التي تعجز في خاتمة المطاف عن حلّ هذه الأزمات.

ولا بدّ أن يعي العالم ضرورة وجود أنظمة ومبادئ جديدة بغية تحقيق هذه الأهداف الكبرى، المبادئ التي تستند إلى الإيمان والقيم الإنسانية والعواطف البشرية والمثل الأخلاقية، لا المبادئ المادية الجافة الخالية من الروح والإنسانية.

ولا بدّ أن يبلغ العالم هذه المرحلة من الوعي الاجتماعي؛ بحيث يدرك أنّ التطور التقني لا يعني إلزامًا تطور البشرية وضمان سعادتها ورفاهيتها، بل الازدهار والتطور التقني الذي يجلب السعادة والخير للبشرية هو ذلك الذي يتمّ من خلال

سلسلة من المبادئ المعنوية والإنسانية، وإلاّ كان هذا التطور - كما لمسناه مرارًا - وبالًا على البشرية وسبب دمارها وانهيارها. ولا بدّ أن يفهم العالم أنّ الصناعات إن ارتدت ثوب الصنمية ستضاعف من حجم المشاكل الراهنة. ولا بدّ أن تصبح وسيلة تحت سيطرة البشرية. وبالتالي لا بدّ أن يشعر العالم بالعطش وما لم يشعر به فلا يتجه صوب الماء.

وبعبارة أُخرى، ما لم يعِش العالم قضية الطلب، فليس هنالك من تأثير لعرض أيّة مشاريع إصلاحية. فقانون العرض والطلب ساري المفعول في القضايا الاجتماعية على غرار المسائل الاقتصادية.

وهنا يرد هذا السؤال: ما هو العامل الذي يفرز حالة العطش والطلب؟

نقول في الجواب:

جانب من ذلك هو مرور الزمان ولا يمكن من دونه، أما الجانب الآخر فيتوقف على التربية والتعليم، فينبغي أن يصبح عمليًا من خلال النهضة الفكرية من جانب العلماء الملتزمين والمسؤولين عن شؤون المجتمع.

ينبغي لهؤلاء وبمشاريعهم التي تهدف إلى تهذيب الإنسان أن يبلغوا بالعالم على الأقل هذه الحالة من الوعي في الانسجام مع هذه المبادئ والقوانين، وهذا الأمر يتطلب بطبيعة الحال قدرًا من الزمان.

ب - التكامل الثقافي والصناعي

من جانب آخر، فإنّ حشد العالم تحت راية واحدة ووضع حدّ لغطرسة الجبابرة والطواغيت وإشاعة أجواء التربية والتعليم في أرقى صورها وإفهام الآخرين بأنّ اختلاف اللسان والعرق والمنطقة الجغرافية وما شابه ذلك لا تدلّ على أنّ أفراد العالم لا يستطيعون العيش كإخوة ضمن أُسرة واحدة في ظلّ الإسلام والعدل والتآخي.

وتوفير اقتصاد سالم وكافٍ لجميع الناس يتطلّب وعيًا ثقافيًا ورفع المستوى العلمي للبشرية من جانب، وتكامل الوسائل الصناعية من جانب آخر؛ الوسائل التي يسعها إرساء ارتباطات سريعة وقريبة ودائمة بين بقاع العالم كافّة. وهذا ما لا يتحقق أيضًا دون تقادم الزمان.

وكيف لحكومة أن تتعامل مع الوضع العالمي إن كانت هذه الارتباطات بطيئة؟ أم كيف يمكن إدارة شؤون العالم بالوسائل التي يستغرق إرسال رسالة فيها إلى مناطق العالم النائية سنوات عدّة من الزمان؟

يستفاد من بعض الروايات التي رسمت صورة عن حياة الناس في عصر ظهور المهدي ﷺ - والتي سيمرّ البحث عنها في المباحث القادمة - أنّ التطور التكنولوجي والصناعي خاصة صنائع الحمل والنقل والارتباط في ذلك العصر، سيكون على درجة من الرقي والازدهار؛ بحيث تصبح قارات العالم بصورة

مناطق متقاربة، ويكون الشرق والغرب بمثابة بيت واحد، فلا يبقى هنالك من مشكلة على صعيد الزمان والمكان.

طبعًا، يمكن أن نحصل بعض هذه الأُمور أثر حركة وثورة صناعية في ذلك العصر، ولكن لا بدّ من استعداد علمي كأرضية لذلك العصر.

ج - إعداد القوى الثورية

بالتالي لا بدّ من إعداد ثلّة مهما كانت قليلة تكون نواة الجيش الثوري لذلك المصلح العظيم. فلا بدّ من تبرعم زهور في هذه النار المحرقة لتكون مقدمة لذلك البستان؛ وينبغي أن يتحلى أفراد تلك الثلّة بالوعي التام والشجاعة والإخلاص والفداء والتضحية، وهذا بدوره يتطلب مقدارًا من الزمان وإن تعاقبت الأجيال الثورية.

وإن قيل: مَن الشخص الذي ينبغي أن ينهض بمسؤولية إعداد أولئك الأفراد؟

فالجواب: ذلك الزعيم الذي يمارس هذا المشروع بصورة مباشرة أو غير مباشرة (سيرد شرح ذلك في المبحث القادم إن شاء الله).

إنّ إحدى علل الغيبة كما ورد في بعض الروايات الإسلامية يكمن في اختبار الناس واختيار الأصلح، والذي يمكن أن يكون إشارة إلى هذا الموضوع.

توضيح ذلك: أنّ الاختبار الإلهي ليس من قبيل الاختبارات بغية التعرف على وضع الذي يؤدّي الاختبار، بل يعني تربية الاستعدادات وإظهار الكفاءات وتمييز الصفوف. وبعبارة أُخرى، الهدف هو التربية والتكامل أو خلق الاستعداد؛ ذلك لأنّ إحاطة الله العلمية بكلّ شيء تسلب أي هدف في ابتغاء طلب الوقوف والعلم من الاختبارات. وهكذا يتضح ممّا تقدّم سبب غيبة المهدي هذه المدة.

٣ - فلسفة وجود الإمام حين الغيبة

السؤال الآخر الذي يرد بشأن عقيدة الشيعة حول وجود المهدي هو: الإمام على كلّ حال زعيم وقائد ووجود القائد مهم ومفيد حين يكون على صلة بأتباعه، فكيف ينهض الزعيم بمسؤوليته إن كان غائبًا عن الأنظار؟ بعبارة أُخرى، إنّ حياة الإمام إبّان الغيبة حياة خاصة ليست اجتماعية، وهنا يحقّ لنا أن نسأل ما الأثر الذي يلعبه هذا الزعيم بالنسبة إلى الناس، وكيف ينتفع به الآخرون؟ فهو كعين الماء الصافية ولا يسع الآخرون وصولها! أضف إلى ذلك هل غيبة الإمام ﷻ بمعنى استبدال وجوده بروح لا مرئية أو أمواج وأثير وما شابه ذلك؟ وهل ينسجم هذا مع العلم؟

هذا السؤال - بلا شك - مهم، ولكن من الخطأ أن نظنّ بصعوبة الإجابة عنه، لكن دعونا نردّ بادئ الأمر على الشق الأخير

الذي أدّى إلى الكثير من سوء الفهم، ومن ثمّ نخوض في الردّ على سائر الأسئلة.

لا بدّ من القول صراحة إنّ الغيبة - كما أشرنا - لا تعني أنّ وجود الإمام في الغيبة هو وجود غير مرئي وخيالي وأشبه بوجود وهميّ، بل له من حيث المعيشة حياة طبيعية وعينية خارجية، غاية الأمر بعمر مديد، يتردّد دائمًا بين الأوساط الاجتماعية، ويقطن مختلف المناطق، وإن كان هنالك من استثناء في حياته فهو عمره الطويل فقط.

إنّه يعيش بصورة غير معروفة في المجتمع، ولم يقل أحد بأكثر من ذلك في غيبته، وهنالك بون شاسع بين «غير معروف» و«غير مرئي»! وبعد أن فرغنا من هذا الأمر، نخوض في هذا الموضوع: حسنًا، إلاّ أن هذه الحياة يمكن توجيهها بالنسبة إلى فرد عادي، ولكن هل يمكن قبوله بالنسبة إلى زعيم بالذات ذلك الزعيم الرباني؟!

كيف يسع التلميذ الذي لا يعرف أستاذه والمريض الذي لا يعلم بعيادة الطبيب والعطشان الذي لا يعلم بعين الماء - مهما كان قريبًا من هذه الأُمور - أن ينتفع بهم؟

الجدير بالذكر: إنّ هذا السؤال لم يطرح الآن، بل ورد في الروايات الإسلامية أنّه طرح حتى قبل ولادة المهدي ﷺ وإبّان عصر الأئمّة حين كانوا يتحدثون عن المهدي وغيبته يطرح عليهم هذا السؤال فيردون عليه، وإليك جانب من ذلك.

فائدة الإمام في الغيبة[1]:

هنالك عبارة رائعة في روايات عدّة بشأن فلسفة ووجود الإمام عجل الله فرجه الشريف في عصر الغيبة، يمكن أن تساعدنا في حلّ هذه المشكلة، حيث قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشأن فائدة الإمام في الغيبة: «أي والـذي بعثني بالنبوة أنّهم ينتفعون به، ويستضيئون بنور ولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن جلّلها السحاب»[2].

ولا بدّ أن نتعرف هنا على دور الشمس بصورة كلية وحين تكون خلف السحاب:

فللشمس نوعان من الضوء: ضوء واضح وآخر مخفي؛ أو بعبارة أُخرى ضوء مباشر وآخر غير مباشر.

وتشاهد الأشعة بوضوح في الضوء المباشر وإن أحيط بطبقات الجو الضخمة وكأنّها زجاجة ضخمة؛ الزجاجة التي تحدّ من إشراقة الشمس وتسهل تحمله، كما تصفي ذلك الضياء وتحيط آثار أشعتها المميتة، ولكن لا تمنع على كلّ حال شعاعها المباشر.

أمّا في الأشعة غير المباشرة، فالغيوم كالزجاجة المعتمة تمتصّ ضياء الشمس المباشر وتنشره.

---

(١) خضت في هذا البحث حين كنت سجينًا عمليًا في قسم نائين حين انتقلت من منفى مهاباد إلى منفى انارك (يوم ١٩٧٨/٥/٣٠م).

(٢) بحار الأنوار، ج٥٢، ص٩٣.

ولضوء الشمس دور مهم في حياة الكائنات كافّة. فالضوء والحرارة التي تنطلق من الشمس هنا وهناك، والطاقة العظيمة للنبات والحيوان والإنسان؛ وتكامل الكائنات الحية ونموها. وتغذيتها وإنجابها، والحس والحركة، وسقي الأراضي الميتة. وأصوات أمواج البحار، وحركة الرياح، وزمزمة أصوات الشلالات، وتغريد الطيور، والجمال الساحر للأزهار، ودوران الدم في عروق الإنسان، ونبض القلب، وانتقال الأفكار عبر حواجز الدماغ، كلّها تعتمد بصورة مباشرة أو غير مباشرة على ضياء الشمس، ودون ذلك تخمد وتؤول إلى الخمود والانطفاء، وهذا ما يمكن إدراكه بسهولة.

والآن يرد هذا السؤال: هل تقتصر هذه البركات والآثار الحيوية على الضياء المباشر للشمس؟

الجواب عن هذا السؤال واضح: كلا، فهذه الآثار موجودة حتّى حين تغيب الشمس خلف السحب.

مثلًا هنالك بعض البلدان والمدن التي تختفي فيها الشمس لأشهر أو سنوات خلف الغيوم، ولكن هنالك الحرارة ونمو النباتات والطاقة اللازمة لإدامة عجلة الحياة ونضج الفاكهة والثمار وتفتح البراعم.

وعليه، فإنّ لشروق الشمس من خلف السحب جانبًا من الآثار والبركات، ولا تنطوي على جانب من تلك الآثار التي تتطلب أشعة مباشرة، فمثلًا نعلم أنّ لشعاع الشمس أثره

الحيوي على جلد الإنسان وسائر أعضائه. ومن هنا، فإنّ الناس في أغلب البلدان المحرومة من هذا الشعاع يلجأون في الأيّام المشمسة إلى الحمامات الشمسية، ويتعرون تمامًا أمام شعاع الشمس لتقوم مساماتهم بامتصاص تلك الأشعة. كما أنّ أشعة الشمس المباشرة وعلاوة على مضاعفتها للحرارة والضوء فإنّ لها أثرًا عظيمًا - بسبب الأشعة فوق البنفسجية - في قتل أنواع المكروبات والإبقاء على سلامة البيئة.

ونستنتج من هذا البحث أنّ حجب السحب وإن امتصّت بعض آثار الشمس، إلاّ أنّ الجانب الأكبر من تلك الآثار باق. كان هذا الكلام في المشبه به، يعني الشمس، ونعود الآن إلى وضع المشبه يعني وجود الزعيم الرباني في الغيبة، فللأشعة المعنوية غير المرئية لوجود الإمام عليه السلام حين تكون خلف سحب الغيبة آثار عدّة تكشف عن فلسفته الوجودية، رغم تعطيل مسألة التعليم والتربية والزعامة المباشرة ومنها:

أ - بث الأمل

إنّ جلّ اهتمام الجنود الأوفياء في ميدان القتال يتمثل في حفظ الراية خفاقة تجاه هجمات الأعداء، بينما يسعى العدو جهد الإمكان إلى الاطاحة بهذه الراية؛ ذلك لأنّ انتصاب الراية يبث روح الأمل والمقاومة والضمود وديمومة القتال.

كما أنّ وجود القائد - مهما كان صامتًا - يبعث على رفع المعنويات وتجديد القوى وتعبئة الطاقات والاندفاع نحو القتال

حيث يشعرون بقوّة حين يرون القائد واهتزاز الراية.

أمّا أن أشيع قتل القائد بين المقاتلين فإنّه يؤدي إلى بعثرة صفوف الجيش مهما كان عظيمًا، وكان ماءً باردًا سكب عليهم ليبرد إرادتهم، بل كأنّ روحهم سلت من أبدانهم.

كما أنّ المجتمع يواصل حركته ونظامه وإن سافر رئيسه إلى خارج البلد ما دام على قيد الحياة، إلاّ أنّ خبر موته يبعث في قلوبهم الشعور باليأس والإحباط.

والشيعة تعتقد بوجود إمامها حيًّا وإن لم تره بينها، بالتالي فهي لا ترى نفسها وحيدة في الساحة.

فهي تنتظر قدومه وتحتمله في كلّ لحظة وهذا ما يؤثر على مسيرتها إيجابيًا.

ومن هنا، يمكن إدراك الأثر النفسي لهذا الأسلوب من التفكير في بثّ الأمر والرجاء في قلوب الأفراد وسوقهم نحو التهذيب والاستعداد لتلك النهضة الكبرى التي مضى شرحها في بحث الانتظار.

أمّا إن لم يكن لهذا الزعيم من وجود خارجي وينتظر أتباعه ولادته في المستقبل فالوضع يختلف تمامًا.

ولو أضفنا نقطة أخرى إلى هذا الموضوع لأصبحت القضية أكثر جدية وهي: على ضوء الاعتقاد العام للشيعة، فقد وردت في أغلب الروايات في المصادر الشيعية أنّ الإمام يتفقّد طيلة غيبته

وبصورة مستمرة أوضاع شيعته، ويقف على تفاصيل أعمالهم عن طريق الالهام وما شابه، وحسب الروايات فإنّ أعمالهم تعرض عليه كلّ أُسبوع ويحيط علمًا بتصرفاتهم وأفعالهم[١].

وهذا الاعتقاد يجعل هؤلاء الأتباع يخضعون لمراقبة دائمة، يستحضرونها عند كلّ قول وفعل، الأمر الذي يمكن إنكار دوره النفسي والتربوي.

ب - حماية الدين

قال علي عليه‌السلام ذلك الرجل الفذ في بعض الكلمات القصار في إشارته إلى ضرورة وجود الزعماء الربّانيين في كلّ عصر وزمان: «اللّهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة إمّا ظاهرًا مشهورًا وإمّا خائفًا مغمورًا لئلا تبطل حجج الله وبيناته»[٢].

وإليك توضيح ذلك:

إنّ مرور الزمان واختلاط الأذواق والأفكار الشخصية بالأمور الدينية والنزعات المختلفة نحو المدارس الانحرافية المزيفة وتسلل الأيادي الأثيمة إلى المفاهيم السماوية يؤدي إلى أن تفقد بعض هذه الأصول والمبادئ أصالتها وتتعرض إلى جانب من التحريف.

وبالطبع، فإنّ هذا الماء العذب الفرات الذي ينزل من سماء

---

(١) وردت هذه الروايات في تفسير البرهان ذيل الآية ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة التوبة، الآية ١٠٥) ولدينا بحث رائع ذكرناه في المجلد الثامن من التفسير الأمثل.

(٢) نهج البلاغة، ١٤٧.

الوحي، ويعبر من فكر هذا وذاك، يجعله يفقد بعض صفائه بالتدريج، على غرار الضياء الذي يصطدم بالزجاج المعتم فيفقد بريقه.

والخلاصة، تبدو هناك بعض المشاكل والصعوبات في التعرف على القضايا الأصلية بفعل ممارسات بعض الأفراد ذوي الأُفق الضيق، حتّى انبرى أحد الشعراء بأسلوبه المعهود في المبالغة مخاطبًا النبي الأكرم ﷺ بأنّ ما حدث في الدين وأضيف إليه، بلغ درجة بحيث لو عدت اليوم لما رأيته كما كان.

وعلى هذا الأساس، أوليس من الضروري أن ينبري من بين المسلمين من يصون التعاليم الإسلامية ويعيدها إلى مسارها الأصلي ويحفظها كما هي للأجيال القادمة؟

أو ينزل الوحي السماوي ثانية على إنسان؟ قطعًا لا، فقد أغلق باب الوحي بمسألة الخاتمية.

فكيف ينبغي حفظ أصالة الدين، والحيلولة دون التحريفات والخرافات؟

هل يتمّ سوى من جانب الإمام المعصوم سواء أكان مشهورًا ومعلومًا أم مغمورًا ومجهولًا «لئلا تبطل حجج الله وبيناته».

تعلم أنّ في كلّ مؤسسة مهمّة «صندوق محكم» تحفظ فيه الوثائق المهمة لتلك المؤسسة لتبقى بعيدة عن أيدي اللصوص؛ إضافة إلى ذلك إن حدث حريق في هذا المكان مثلًا كان ذلك

الصندوق بعيدًا عنه. فصدر الإمام وروحه العظيمة هي صندوق حفظ معالم الدين وخصائص المفاهيم السماوية الرفيعة «لئلا تبطل حجج الله وبيناته».

ج - إعداد ثلّة ثورة واعية

خلافًا لما يعتقده من قطع الارتباط المطلق بين الإمام والأُمّة في عصر الغيبة، بل كما يستفاد من الروايات الإسلامية فإنّ هنالك ثلّة من الأفراد الذين يعيشون عشق الله ويتمتعون بقلب يفيض بالإيمان والإخلاص والتفكير في إصلاح العالم، مرتبطة بالإمام وتعدّ بالتدريج من خلال هذه الرابطة، وتتكهرب بروح الثورة التي تستأصل جذور الظلم والجور من كافة أنحاء العالم.

ربّما يتوفّى هؤلاء قبل انطلاقة النهضة، ولا يقدح ذلك في الهدف، فهم ينقلون تلك التعاليم التعبوية إلى أجيالهم القادمة ليجدّوا ويجتهدوا في إعداد الثلّة الصالحة.

قلنا سابقًا أنّ غيبة الإمام عليه السلام لا تعني كونه يتحول إلى روح غير مرئية أو أشعة غير ظاهرة، بل يتمتع بحياة طبيعية هادئة ويعيش بشكل مجهول بين الناس، ويستقطب القلوب المستعدة، ويستحوذ عليها فيجعلها أكثر تأهّبًا واستعدادًا، ويتفاوت الأفراد حسب استعداداتهم في نيل سعادة اللقاء. فبعضهم يلتقيه لحظات وآخر ساعات وثالث عدة أيّام وشهور وربّما سنوات.

بعبارة أوضح، إنّ البعض بلغ منزلة رفيعة من العلم والورع والتقوى؛ بحيث أصبح كالراكب في الطائرة التي تحلق في عنان السماء وهي تخترق السحب والغيوم، بينما ما زال البعض الآخر يعيش تحت السحب في الظلمات.

وهذا هو الحساب الصائب، فلا ينبغي أن أجلس وأنتظر لأسحب الشمس تحت السحب وأراها، فهذا الانتظار خطأ محض ووهم زائف. أنا الذي ينبغي أن أحلق فوق السحب والغيوم لأستضيء بضياء الشمس وأنتهل من نورها.

على كلّ حال، فإنّ تربية هذه الثلة تعدّ من الآثار المترتبة على فلسفة وجوده في هذا العصر.

٤ - النفوذ الروحي والتلقائي

نعلم أنّ للشمس أشعة مرئية تظهر من تركبها الألوان السبعة، كما لها أشعة غير مرئية هي «الأشعة فوق البنفسجية» و«الأشعة تحت الحمراء».

كذلك للزعيم الربّاني سواء النبي أم الإمام، وإضافة إلى التربية التشريعية عن طريق القول والفعل والسلوك والتعليم والتربية العادية، فإنّ هناك تربية روحية من خلال النفوذ المعنوي في القلوب والأفكار والتي يمكن الاصطلاح عليها بالتربية التكوينية، ليس هنا من فاعلية للألفاظ والكلمات والأقوال والأفعال، بل الكلمة الفصل للجذب الباطني.

ونرى في سيرة أغلب أولياء الله العظام في أنّ بعض الأفراد المنحرفين والملوثين وأثر اتصال خاطف يغيرون مسيرتهم بصورة تامة، فتتغير عاقبتهم جذريًا، فيتحولون إلى أفراد مؤمنين مخلصين لا يألون جهدًا في التضحية بالغالي والنفيس من أجل الدين.

فهذه التغييرات السريعة والشاملة، وهذا الانقلاب العظيم الجامع والذي يحصل من نظرة أو ارتباط بسيط (طبعًا رغم التلوث فإنّ هنالك استعدادًا عاليًا لديهم)، فإنّه لا يمكن أن يعزى إلى التعليم والتربية العادية، بل معلول لأثر نفسي غير مرئي وجذبة تلقائية يعبر عنها أحيانًا بنفوذ الشخصية.

ولعلّ أغلب الأفراد جرّبوا ذلك في حياتهم أنّهم حين يتلقون بعض الأفراد من ذوي الروح الرفيعة والعالية فإنّه يتأثر تلقائيًا ودون أن يتمالك نفسه حتّى يصعب عليه التحدث بحضرتهم؛ فيرون أنفسهم وسط هالة عظيمة يصعب عليهم تصويرها. طبعًا، يمكن توجيه بعض هذه الأمور بالتلقين أحيانًا؛ لكن من المسلّم به أنّ هذا التفسير ليس صحيحًا في جميع الموارد، بل ليس أمامنا من سبيل سوى بأن نذعن بأنّ هذه الآثار تفرز عن قبل ومضات سرية تنبعث من باطن الذات الإنسانية العظيمة.

وإنّنا نرى القصص الكثيرة في تاريخ الأئمّة العظام، والتي لا يمكن تفسيرها سوى من خلال هذا السبيل، كقصة قدوم شاب عاص على النبي الأكرم ﷺ وتحوّله المعنوي والروحي، أو لقاء

أسعد بن زرارة الوثني النبي الأكرم ﷺ عند الكعبة وتغيّر فكره وعقائده، أو ما يسميه أعداء النبي الأكرم ﷺ سحرًا والذي كان يؤثر به على من يقترب منه؛ كلّ ذلك يعكس نفوذ شخصية النبي ﷺ إلى أعماق أولئك الأفراد. وهكذا ما ورد بشأن تأثير كلام الإمام الحسين عليه السلام على «زهير» في مساره إلى كربلاء، حتّى أنّه لم يستطع وضع ما كان في يده من طعام في فمه، فطرحه أرضًا وانطلق. أو الجذبة العظيمة التي شعر بها الحرّ بن يزيد الرياحي فأخذ يرتعش كالسعفة رغم شجاعته؛ فقاده ذلك إلى الالتحاق بركب الإمام حسين عليه السلام ونيل الشهادة، أو قصة الفتى الذي كان يسكن جوار «أبو بصير» والذي كان ثريًا ويعيش في دعة ورفاهية إثر خدمته لبني أمية، حتّى تغيّر تمامًا إثر رسالة الإمام الصادق عليه السلام فهجر كلّ أفعاله وأعاد كافة الأموال التي حصل عليها من الطريق غير المشروعة إلى أصحابها، وأنفق الباقي في سبيل الله، أو تلك الخادمة الحسناء لدى هارون والتي بعث بها إلى الإمام الكاظم عليه السلام ظنًا منه بأنّه يؤثر على الإمام عليه السلام فعاشت ذلك الانقلاب الروحي خلال تلك المدّة القصيرة حتّى سلبت لب هارون بمنطقها و.... كلّ ذلك نماذج من هذا التأثير التلقائي والعفوي الذي يمكن اعتباره شعبة من الولاية التكوينية للنبي ﷺ أو الإمام عليه السلام؛ ذلك لأنّ عالم التربية والتكامل هنا ليس الألفاظ والجمل والطرق المتعارفة والعادية، بل هو الجذبة المعنوية والنفوذ الروحي.

ولا يقتصر هذا الأمر - كما قلنا - على الأنبياء والأئمّة، بل لبعض

أولياء الله ودعاة الحقّ هالة من هذا النفوذ والتأثير العفوي، غاية الأمر ليست هنالك من نسبة للمقارنة بين دائرة تأثير الفريق الأوّل والثاني من حيث السعة والشمولية.

ولوجود الإمام عليه السلام خلف غيوم الغيبة مثل هذا الأثر عن طريق الأشعة الخارقة والشاملة لنفوذ شخصيته في استقطاب القلوب القاصية والدانية وإعدادها باتجاه السمو والتكامل.

إنّنا لا نرى بأعيننا قطبي المغناطيس الأرضي، غير أننا نلمس أثرهما على عقارب البوصلات والسفن في البحار والطائرات في السماء وسائر الوسائل والأدوات. ولعلّ ملايين المسافرين يهتدون ببركات هذه الأمواج المغناطيسية في كافة الأماكن، وكذلك وسائط النقل الصغيرة والكبيرة التي تتخلص بأوامر هذه العقارب الصغيرة من الحيرة والضلال.

فهل من العجيب أن يهدي الإمام عليه السلام في غيبته بأمواج جاذبيته المعنوية أفكار العديد من الأفراد هنا وهناك وينجيهم من الحيرة والضلال؟

لكن لا ينبغي ولا يمكن أن ننسى بأنّ الأمواج المغناطيسية كما لا تؤثر على كلّ قطعة حديدية تافهة،أ بل يقتصر تأثيرها على العقارب الظريفة والحساسة، ولها سنخية مع القطب المرسل للأمواج المغناطيسية، كذلك إنّما تتأثر بالإمام القلوب التي لها سنخية وشبه روحي به. وهكذا يتضح ممّا مرّ معنا الأثر الآخر من آثار فلسفة وجود الإمام عليه السلام في الغيبة.

٥ - هدف الخليقة

ليس هنالك من عاقل يتقدم دون هدف، وكلّ حركة تتم في ظلّ العقل والعلم تتجه نحو هدف معين. مع هذا الفارق في أنّ الهدف من أعمال الإنسان رفع حاجاته وتلبية متطلباته، أمّا الهدف من أفعال الله هو الآخرين وإشباع حاجاتهم؛ ذلك لأنّ ذاته غنية من جميع الجهات ومنزّهة من كلّ نقص، وعليه فلا معنى لمصلحته في أفعاله.

ينبغي الالتفات إلى هذا المثال:

نقيم بستانًا مليئًا بالفاكهة والثمار في أرض خصبة، وهنالك العلف الذي ينبت بين الأشجار والورد، وكلما سقينا تلك الأشجار فإنّ العلف يروى من تلك المياه.

وهنا يكون لدينا هدفان:

- الهدف الأصلي سقي الأشجار والورود.
- والهدف التبعي سقي العلف.

لا شك أنّ الهدف التبعي ليس هو الدافع للعمل، أو موجه لحكمته؛ والمهم الهدف الأصلي الذي ينطوي على الجانب المنطقي. ولو افترضنا الآن جفاف أكثر أشجار البستان وعدم بقاء أكثر من شجرة واحدة، لكنها الشجرة التي تعطينا الفاكهة والثمار التي لا تتوقعها من آلاف الأشجار، فممّا لا شك فيه أننا نواصل سقي تلك الشجرة، وكأنّ مزيدًا من العلف أيضًا يستفيد من تلك

المياه، ولو جفت تلك الشجرة يومًا فإننا سنتخلى عن السقي وإن مات كلّ ذلك العلف.

عالم الخلق كذلك البستان الزاهر والناس أشجاره، ومن سار نحو المال فهو بمثابة الشجرة المثمرة، ومن نزع نحو الانحراف والتسافل كعلف ذلك البستان.

لا شكّ في أنّ هذه الشمس المشرقة وذرات الهواء وكلّ بركات الأرض والسماء لم تخلق من أجل حفنة من المفسدين الذين يتنازعون فيما بينهم ويأكل قويّهم ضعيفهم، ولا يذوق المجتمع سوى ظلمهم وجورهم وفسادهم. كلا، حقًّا هذا ليس الهدف من الخلق!

فقد خلق هذا العالم وجميع النعم - من وجهة نظر فرد عابد وعارف ببعض المفاهيم كعلم الله وحكمته - للصالحين والطاهرين، وهكذا ستخرج آخر الأمر من أيدي غاصبيها وتقع بيد أصحابها ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[١].

وبستان الخليقة - عالم الوجود الواسع - يواصل عطاءَ من أجل هذه الفئة؛ وإن انتفع به العلف كهدف تبعي، إلاّ أنّ الهدف الأصلي تلك الفئة.

ولو فرض اليوم الذي ينقرض فيه آخر نسل من فئة الصالحين من على الأرض قطعًا ستتوقف مواصلة النعم.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٥.

آنـذاك يربك استـقرار الأرض وتمنع السماء بركاتها، وتقتر الأرض على الإنسان منافعها.

يعتبر النبي أو الإمـام رمز الثلّة الصالحة ونمـوذج الإنسان الكامل، أي الفئة التي تمثل الهدف الأصلي للخليقة. ومن هنا، فإنّ وجـوده بمفرده يوجه هـدف الخليقة ومصدر نزول كلّ خير وبركة وهطول أمطار الفيض ورحمة الله، سواء أكان ظاهرًا وسط الناس أم غير ظاهر وغير معروف.

صحيح أنّ سائر الأفراد الصالحين كلّ منهم هدف للخليقة، أو بعبارة أُخرى جزء من الهدف العظيم، إلاّ أنّ النموذج التام لهذا الهدف هو هؤلاء الأفراد القدوة والزعماء الربّانيون، وإن كان دور الآخرين محفوظًا.

ويتضح من هنا ما ورد في بعض العبارات مثل:

«بيمنه رزق الورى وبجوده تثبت الأرض والسماء».

فـهذه ليست من قبيل «المبالغة» و«مجانبة المنطق» أو «الشرك».

وكذلك العبارة الـواردة في الحديث القدسي الذي خاطب النبي «لولاك لما خلقت الأفلاك» التي تبيّن حقيقة، وليست مبالغة، غاية الأمر أنّه ذروة هدف الخليقة، وسائر الصالحين جزء من هذا الهدف.

ونستنتج من مجموع ما أوردناه في هذا الفصل تحت العناوين

الخمسة أنّ أولئك الذين قبعوا في زاوية وظنوا أنّ وجود الإمام في عصر الغيبة هو وجود شخصي دون ثمرة اجتماعية وحملوا - كما ذهبت الشيعة - على فلسفة هذا الوجود وما عسى أن يكون انتفاع الخلق بزعامته، قد أخطأوا في حساباتهم وأنّ الأمر ليس كما ظنّوا، فآثاره حتّى في هذه الحالة أعظم من أن تحصى.

الفصل السابع:
سبيل انتصار ذلك المصلح العظيم

هل ينهض الإمام بالسيف

إنّ التفوق في القوة يعدّ شرطًا مهمًا في الانتصار على العدو، ولا تقتصر هذه القوة على الجانب العسكري، بل التفوق من حيث القدرات الروحية والإيمان بالهدف ورصانة الدعائم الاقتصادية والاجتماعية، كلّ هذه من الأمور التي تلعب دورًا أساسيًا في تحقيق الغلبة.

وليس هنالك من سبب يكمن في فشل المجتمعات وإحباطها واستسلامها للذلة والخنوع سوى عدم سعيها باتجاه توفير تلك العناصر الضرورية لتحقيق النصر.

وعلى هذا الأساس ترد بعض الأسئلة بشأن قيام المصلح العالمي الكبير ومنها:

١- هل يعتمد زعيم هذه النهضة

العالمية الشاملة من الأسلحة التقليدية للعصور السابقة (الأسلحة الحديدية البسيطة) بغية تحقيق العدل العالمي وتحقيق النصر وهزيمة الجبابرة والطواغيت من قبل جند الحقّ. إن كان كذلك فكيف يسعه إقناع الآخرين بهذا الأسلوب القتالي، وأنّى لهذا السلام بالصمود مقابل أسلحة العصر المتطورة والفتاكة، وبالتالي هزم العدو وتحقيق النصر؟ أم أنّه سيستعين بسلاح أكثر تطورًا من الأسلحة المتوفرة الآن لدى البلدان المتقدمة؟ ما ماهية هذا السلاح وكيف سيحصل هو وأتباعه عليه؟

٢- بغضّ النظر عمّا سبق فقد جاء في الروايات: إنّه عليه السلام «يقوم بالسيف»؛ الأمر الذي يفيد اعتماده على الأسلحة البسيطة. وهنا يرد الإشكال السابق: كيف يمكن تعطيل الأسلحة المتطورة والعودة إلى عصر الأسلحة المتواضعة؟ هل ستشهد الدنيا المعاصرة حربًا ذرية - كما يعتقد بعض العلماء - مدمرة بحيث لا يكون هناك من مجال سوى العودة إلى الماضي وآنذاك يظهر ويمارس النهضة؟ هل يمكن قبول هذا الاحتمال؟

٣- أيضًا يرد هذا السؤال: هل تزول كلّ هذه الوسائل الحديثة والمتطورة المعدة لرفاه البشرية وسعادتها بحيث يرجع الإنسان إلى العصور القديمة؟ أيمكن قبول هذا النمط من التخلف والرجعية؟ أم بالعكس لا تبقى فقط، بل تتكامل بسرعة بالنحو الذي يجنبها آثار حياة المكننة السلبية؟ بعبارة أخرى حصول التطور الذي يختزن التكامل والنقاء.

للإجابة عن هذه الأسئلة يمكن الاستعانة ببعض المصادر الروائية إلى جانب الأدلة العقلية، لارتباطها بهذين المصدرين.

يصرّح العقل بأنّ العودة إلى الوراء ليست ممكنة ولا منطقية، وهذا خلاف سنّة الخلق وأصل تكامل الحياة؛ وعليه ليس هناك من دليل على جمود المجتمع وإيقاف عجلة تطوره بغية تحقيق الحقّ والعدالة، وأنّ قيام المصلح العالمي الكبير بهدف بسط العدل والحرية في كافّة أنحاء العالم لا يؤدي بأي شكل من الأشكال إلى ركود أو إزالة الحركة الصناعية وما عليها من تطور.

فالتطور الصناعي الراهن لم يتمكن من حلّ أغلب المعضلات التي تواجه الإنسان في حياته فحسب، بل كما ذكرنا في الأبحاث السابقة فإنّه يشكل أحد دعائم استقرار الحكومة العالمية الواحدة، وتقريب المناطق العالمية على صعيد الارتباط والعلاقات الاجتماعية، وهي الأمور التي يتعذر تحقيقها دون التكامل الصناعي. ولكن لا شك في أنّ هذه الحركة والنهضة الصناعية والتكامل التقني ينبغي أن يخضع إلى غربلة لينقى من العوالق السلبية والمضرّة ويصبّ في صالح الإنسان وتحقيق أهدافه في العدل والحرية، وهذا ما ستمارسه قطعًا حكومة العدل. هذا بشأن التطور الصناعي والتقني.

وأمّا بشأن السلاح فنقول: لا بدّ من الإطاحة بالحكومات الجائرة والمستبدّة من أجل استقرار حكومة العدل، وينبغي على الأقل توفير الأسلحة الأفضل للقضاء على تلك الحكومات، السلاح الذي ربّما يصعب علينا اليوم حتّى تصوره.

فهل سيكون هذا السلاح من قبيل الأشعة المجهولة التي تفوق الأسلحة المتطورة السائدة الآن وباستطاعتها القضاء عليها جميعًا؟ أم من خلال التأثير النفسي وشل قدراتهم الفكرية بحيث لا يستطيعون المبادرة إلى استخدام الأسلحة الفتاكة؟ أم حصول شيء من قبيل الشعور بالخوف والهلع والرعب الذي يحول دون الإقدام؟ أم هنالك شيء آخر.

لا ندري، ولا يسعنا الإشارة إلى هذا السلاح من الناحية المادية أو النفسية أو سائر النواحي، وكلّ ما يسعنا قوله إنّه سيكون السلاح الأقوى، كما نعلم أنّه ليس السلاح الذي يأتي على الأخضر واليابس فيقضي على هذا وذاك ليقيم صرح العدالة على أساس الظلم، هذا من حيث التحليل العقلي.

وأمّا من حيث المصادر الروائية: فقد وردت بعض العبارات في مصادر الروايات تتضمن إجابات واضحة عن الأسئلة المذكورة ومنها:

١- روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ قائمنا إذا قام أشرقت الأرض بنور ربّها واستغنى العباد عن ضوء الشمس»[١].

ويفهم من هذه العبارة أنّ قضية الضوء والطاقة ستحلّ؛ بحيث يستفاد في الليل والنهار من أعظم ضوء يسعه أن يحل محل ضياء الشمس.

وهل ينبغي أن نصبغ هذا الموضوع بصبغة الإعجاز، في حين ينبغي أن تدور مشاريع الحياة اليومية - وبصورة مستمرة - حول

---

(١) بحار الأنوار، ج١٣، ص١٧٦ الطبعة القديمة.

محور السنن الطبيعية لا الإعجاز. فالإعجاز أمر استثنائي عند بعض الموارد الضرورية وفي إطار إثبات حقانية دعوى النبوة أو الإمامة.
على كلّ حال، فإنّ الحياة العادية للناس لم تجر على أساس الإعجاز في عصر أي نبي. وعليه، فإن تكامل العلم والصناعة سيبلغ مرحلة تمكّن الناس بقيادة ذلك الزعيم من اكتشاف بعض مصادر الطاقة التي تغنيهم عن أشعة الشمس.
فهل سيكون السلاح اللازم لتحقيق العدل والسلام والحرية من أسلحة القرون الماضية، وهل هناك من تناسب بين الأمرين؟

٢- ورد في رواية أخرى عن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّه إذا تناهت الأُمور إلى صاحب هذا الأمر رفع الله تبارك وتعالى له كلّ منخفض من الأرض، وخفض له كلّ مرتفع حتّى تكون الدنيا عنده بمنزلة راحته، فأيّكم لو كانت في راحته شعرة لم يبصرها»[1].
تنصب اليوم بعض المرسلات على الجبال لتساعد في نقل الصور إلى مختلف نقاط العالم، كما استفيد من الأقمار الصناعية في تغطية عدة مناطق بهذه الصور، حتّى يتمكن كلّ من كان لديه جهاز استقبال من التقاطها.
إلاّ أنّ عكس هذا الموضوع لا يبدو عمليًا على الأقل في الوقت الحاضر، أي يمكن نقل الصور من نقطة إلى مختلف نقاط العالم، بينما لا يمكن نقلها من مختلف النقاط إلى نقطة

---
(١) بحار الأنوار، ج٥٢، ص٣٢٨.

معينة، إلاّ أن تكون هناك مرسلة في كلّ بيت ومنطقة وصحراء وجبل وكلّ بقعة من بقاع العالم ليتمكن الوقوف على كلّ ما في العالم، وهذا الأمر لا يبدو ممكنًا بالوسائل الموجودة اليوم.

أمّا الذي يفهم من الحديث المذكور أنّ عصر المهدي ﷻ سيشهد وجود نظام دقيق ومجهز يتولّى نقل الصور، ولعله يصعب علينا اليوم تصوره؛ بحيث يصبح العالم بأسره كراحة اليد دون ظهور المرتفعات والمنخفضات التي تحجب رؤية ما على الأرض.

طبعًا، لا يمكن انبثاق الحكومة العالمية الواحدة التي تبسط العدل والقسط والأمن والسلام في كافّة أرجاء العالم دون أن تمتلك مثل هذه الأنظمة الاستخبارية المتطورة.

وتؤكد مرّة أُخرى بأنّ هذه الأمور ذات الصلة بالحياة اليومية للناس، من المستبعد أن تتمّ على أساس الإعجاز، بل على ضوء الأسباب الاعتيادية وتطور العلم والصناعة.

كما يتضح أنّ هذه الأنظمة المتطورة لا ينبغي أن تكون في مجتمع متخلّف، بل لا بدّ أن يكون هنالك من تناسب بين سائر مرافق الحياة وهذا المر من حيث التطور والازدهار، بما في ذلك السلاح والآلة العسكرية.

٣- عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «ذخر لصاحبكم الصعب! قلت: وما الصعب؟ قال: ما كان من سحاب فيه رعد وصاعقة أو برق، فصاحبكم يركبه، أما أنّه سيركب السحاب ويرقى في الأسباب؛ أسباب السموات السبع والأرضين»[1].

(١) بحار الأنوار، ج١٢، ص١٨٢.

طبعًا، ليس المراد من السحاب هذا السحاب العادي، لأنّ السحب ليست من الوسائل التي يمكن السفر بواسطتها إلى الفضاء. فالسحب تتحرك في جو قريب من الأرض ولا تبعد مسافة تذكر عنها ولا يمكنها الارتفاع كثيرًا عن الأرض، بل هي إشارة إلى وسيلة غاية في السرعة بحيث تبدو في السماء بصورة كتلة مضغوطة من السحب لها صوت كالرعد وقدرة وشدة كالصاعقة والبرق، تشق السماء حين الحركة بقوتها الفائقة وتستطيع أن تبلغ أيّة نقطة في السماء.

وعليه، فهي وسيلة تفوق الحداثة لا يوجد ما يشبهها في الوسائل الموجودة، ولعلّها أكثر شبهًا بالصحون الطائرة والوسائل الفضائية ذات السرعة المذهلة التي نسمع عنها اليوم الكثير من القصص، ولا نعرف على وجه الدقّة مدة علميتها وواقعيتها، مع ذلك فهي ليست صحون طائرة.

على كلّ حال، يمكن أن نفهم من الرواية المذكورة أن ليس هنالك من تخلف صناعي، بل بالعكس هنالك التطور والازدهار والذي يعني تطور وتكامل سائر المجالات.

٤- الرواية الواردة عن جابر عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إنّما سمّي المهدي لأنّه يهدي إلى أمر خفيّ، حتّى أنّه يبعث إلى رجل لا يعلم الناس له ذنبًا فيقتله حتّى أنّ أحدهم يتكلّم في بيته فيخاف أن يشهد عليه الجدار»[١].

فهذه الرواية تدلّ على أنّ عصره وإن شهد حرية واستقرار

(١) بحار الأنوار، ج٥٢، ص٣٩٠.

الصالحين، إلاّ أنّ العصاة الأشرار يشعرون بأنّهم خاضعون لسيطرة دقيقة؛ بحيث يمكن التعرف على أمواجهم الصوتية من خلال بعض الوسائل المتطورة وهم داخل بيوتهم، وبالتالي يمكن معرفة الكلام الذي أوردوه عند الضرورة اللازمة لذلك. ولعلّ هذا الكلام لا يعني قبل أكثر من مئة سنة سوى الإعجاز. بينما لا نراه اليوم كذلك ونحن نرى كيف تتمّ السيطرة في أغلب البلدان على حركة السيارات بأجهزة الرادار من الطرق البعيدة ودون حضور الشرطة، أو ما نسمعه من أنّ العلماء تمكّنوا من خلال بعض الأمواج على الصفائح في المتاحف المصرية من إحياء أصوات أولئك الذين صنعوها قبل ألفي سنة، أو نسمع بوجود أجهزة تستطيع ببعض الأمواج الحرارية (الأمواج تحت الأشعة الحمراء) أن تلتقط الصور لتتعرف على السارق أو القاتل الذي ترك المكان توًا وغادره.

وهكذا تتضح إجابات الأسئلة المذكورة ممّا ذكرناه سابقًا، حيث قضية التخلف الصناعي ليست غير واردة في عصر المهدي ﷺ فحسب، بل هنالك تطور وازدهار خارق للصناعة والتكنولوجيا لا يصبّ سوى في ضمان مصالح الإنسان وتحقيق أهدافه في الحرية والعدل والسلام.

مفهوم السيف:

لم يبق سوى هذا السؤال: ترى ما المراد بكلّ هذه العبارات التي تحدثت عن قيام المهدي ﷺ بالسيف؟ حتّى في الأدعية

التي تلهمنا دروس الاستعداد لخوض غمار هذا الجهاد فإنّنا نقول: «شاهرًا سيفه»، فنسأل الله أن يوفقنا للالتحاق بصفوف المجاهدين وشهر السيف من أجل نصرة الحقّ.

الواقع هو أنّ «السيف» كان ولا يزال يرمز إلى القوة والقدرة العسكرية على غرار «القلم» الذي يرمز إلى العلم والثقافة.

وممّا لا شك فيه أنّه كانت هنالك بعض الأسلحة التي تختلف عن السيف في الحروب السابقة من قبيل القوس والحربة والسهم والخنجر، إلاّ أنّ الغالب في الألفاظ هو السيف، فيقال: ليس لك عندي سوى السيف إن لم تسلِّم لهذا الأمر، أو ما تعارف سابقًا من أنّ شؤون البلاد تدار بالسيف والقلم، وكلّ ذلك من قبيل الرمز إلى القوة والثقافة والعلم. ولدينا اليوم العديد من الأمثال التي تضرب بهذا الخصوص من قبيل: سلَّ فلان سيفه، أي أظهر قدرته علانية، سيحكم السيف بيننا وبينكم، إشارة إلى عدم وجود حلّ سوى السيف والقتال. ولن أغمد سيفي حتّى أحقق هدفي، أي سأواصل المعركة حتّى الرمق الأخير. إنّ فلانًا له سيف ذو حدين، يعني يحارب من جانبين.

وتشير كلّ هذه التعبيرات على سبيل الكناية إلى القوة والمواجهة، كما ورد ذلك في بعض الروايات الإسلامية مثل:

- «الجنّة تحت ظلال السيوف».
- «السيوف مقاليد الجنّة».

وكلّها ترمز إلى الجهاد والتضحية واستعمال القوة، ومثل هذه التعبيرات الرمزية بالسيف والقلم كثيرة في مختلف اللغات. ومن هنا، يتضح أنّ المراد من قيام المهدي عجّل الله فرجه الشريف بالسيف هو استعانته بالقوة؛ حتّى لا يظن بأنّ نهضة هذا المصلح الرباني تقتصر على الوعظ وإسداء النصح والإرشادات في الميادين الاجتماعية، بل هو زعيم ينطلق في نهضته من محورين؛ يتمثل الأوّل في المنطق وحيث لا يجدي نفعًا سيّما تجاه الجبابرة والطواغيت، فإنّه يلجأ إلى السيف، أي يستعين بالقوة في مواجهة الظلمة، والواقع ليس هنالك من سبيل لممارسة الإصلاح والقضاء على الفساد سوى ذلك، «الناس لا يقيمهم إلاّ السيف».

وبعبارة أخرى، إنّ وظيفته لا تقتصر على إراءة الطريق، بل مهمته الأعمق - إضافة لما تقدّم - إجراء القوانين الشرعية وتطبيق الأحكام الدينية وبلوغ السمو والكمال.

ويبدو أنّ نقطة قد اتضحت ممّا ذكر وهي: خلافًا لما يظنه بعض ضيّقي الأفق من أنّ قيامه يستند دون مقدمة إلى السلاح، وعلى ضوء تلك الخرافة فإنّه يسفك الدماء حتّى تبلغ ركابه، فإنّه سيبدأ المواجهة بادئ الأمر من خلال الحوار الفكري وفي كافة الأصعدة، أي على ضوء الاصطلاح الديني يتمّ الحجّة على الخصوم بحيث يستجيب له كلّ من امتلك بعض الاستعداد لقبول الحقّ، فلا يبقى سوى من لا تجدي معه الأساليب الأخرى نفعًا غير القوة.

فالذي نستفيده من القرائن القائمة على هذا الموضوع - بغض النظر عن دليله - أنّ أسلوبه وسيرته هي سيرة رسول الله ﷺ. فقد مارس الدعوة السرية في مكّة لثلاثة عشرة سنة وقد التفّ حوله أولئك الذين يسمعون منطق الحقّ، بينما هبّ لمواجهته أولئك الجفاة الذين يشكلون الأكثرية الساذجة، فاضطر للهجرة إلى المدينة وأرسى دعائم الحكومة الإسلامية واستعدّ لمواجهة الأعداء وشقّ طريقه نحو دعوة عامة الناس.

ورغم الدعايات المغرضة التي تثار ضد الدعوة الإسلامية من أنّها دعوة السيف، إلاّ أنّ أفضل سند لدينا اليوم والذي لا يسعهم إخفاءَه أو إزالته هو القرآن الكريم.

ولو كان الإسلام دين العنف والقوة لما غصّ القرآن بكلّ تلك الأدلة والبراهين لإثبات الحقائق، ولا سيّما في موضوعَيْ معرفة الله والمعاد اللذين يشكلان أهم المحاور الأساسية للإسلام، ولما طالب أصحاب الفكر والعقل والمنطق بإصدار الأحكام، ولما تحدّث بهذه الطريقة عن العلم والمعرفة، فالنظام الذي يتصف بالعنف لا يعرف من معنى للدليل والبرهان.

والإسلام حتّى يلجأ إلى القوّة ليكشف عن موقفه بالأدلّة والبراهين مشيرًا إلى عدم إمكانية التغاضي عن تلك القوة.

على كلّ حال، فهو يسير بسيرة النبي الأكرم ﷺ، إضافة إلى رقيّ المستوى الفكري للناس في عصره وتؤكد ضرورة اعتماد المنطق، على غرار ضرورة اعتماد القوة تجاه الطغاة.

طبعًا ستكون بعض جوانب هذه الثورة دموية؛ حيث تهدف إلى إراقة تلك الدماء الملوثة، وهل هنالك من سبيل للإصلاحات الجذرية في المجتمعات الفاسدة سوى ذلك، إلاّ أنّ هذا لا يعني أنّه يسفك الدماء عبثًا، فهو بالضبط كالطبيب الحاذق في امتصاصه للدماء الملوثة من بدن مريضه.

الفصل الثامن:
سيرة الحكومة العالمية

العصور الثلاثة

هنالك ثلاثة عصور بشأن النهضة التاريخية الكبرى للمهدي، هي:

١- عصر الاستعداد والانتظار وعلامات الظهور.

٢- عصر النهضة ومواجهة الظلم والفساد.

٣- عصر الحقّ والعدل.

تحدثنا بإسهاب عن العصر الأوّل والثاني، ونخوض هنا في العصر الثالث الذي يمثل نتيجة ومحصلة تلك النهضة الشاملة، فلم تسلّط الأضواء على هذا الموضوع كما ينبغي رغم أهميته.

على كلّ حال، يتوقع انبثاق عالم خالٍ من التمييز العنصري، والتفاوت الطبقي، وسائر أصناف الفرقة، والتشتت، ونشوب الحروب، وسفك

الدماء، والاعتداء، واللهجة الاستعمارية الغاشمة وأنين الشرائح المعدمة والمحرومة.

ويا له من عالم رائع يبعث على الراحة والنشاط. وبالطبع كما يسهل نظريًا تصوير مثل هـذا العالم في الخيال، فإنّه شائكٌ ومعقدٌ من الناحية العملية، ولكن على كلّ حال فلا بد للبشرية من سلوك هذا الطريق وإلاّ ليس هنالك سوى الفساد والانحراف.

وقد تضمنت الروايات بعض الإشارات إلى الخطوط العامة لذلك المجتمع، وأنّها حقًّا لعبارات حية ورائعة على الرغم من كونها وردت قبل ثلاثة عشر قرنًا.

ونشير هنا إلى بعض:

تطور العلوم في عصر المهدي عجّل الله فرجه الشريف:

ليس هنالك من نهضة دون طفرة فكرية وثقافية أصيلة تنشد الرقي والكمال؛ وعليه فالخطوة الأولى لتحقيق هذا الهدف تكمن في انطلاقة النهضة الثقافية التي تسوق الأفكار إلى الحركة باتجاهين:

الأوّل: في مجال العلوم التي تحتاجها المجتمعات الحرة والصحية (هذا من حيث النظرة المادية).

والثاني: على صعيد الوقوف على مبادئ الحياة الإنسانية المفعمة بالإيمان (النظرة المعنوية).

جاء في حديث للإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «العلم سبعة وعشرون حرفًا فجميع ما جاءت به الرسل حرفان، فلم يعرف الناس حتّى اليوم غير الحرفين، فإذا قام قائمنا أخرج الخمسة والعشرين حرفًا، فبثها في الناس وضمّ إليها الحرفين، حتّى يبثها سبعة وعشرين حرفًا»[١].

فالحديث يشير إلى الطفرة الثقافية والعلمية التي يشهدها عصر النهضة للإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف والذي يعادل ١٢ ضعفًا بالنسبة إلى العلوم والمعارف التي كانت سائدة في عصور الأنبياء جميعًا، حيث تفتح بوجه البشرية كافّة أبواب العلوم البنّاءة والنافعة، فيجتاز الإنسان بمدة قصيرة اثني عشر ضعفًا ما بلغته البشرية خلال آلاف السنين؛ وهل هنالك طفرة أعمق وأرفع من هذه؟!.

كما ورد حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام يكمل سابقه حيث قال: «إذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد، فجمع بها عقولهم وكملت بها أحلامهم»[٢].

وهكذا تنطلق العقول باتجاه الكمال في ظلّ إرشادات وتوجيهات المهدي عجل الله فرجه الشريف وعنايته ولطفه، وتنضج الرؤى والأفكار، وتزول كافة الرؤى الضيقة والأفكار الضحلة التي تعد مصدر جميع التضاد والتزاحم والنزاعات الاجتماعية العنيفة.

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٢، ص٣٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٢٨.

فالأفراد يتمتعون آنذاك بسعة الأفق والأفكار الحرة والصدور الرحبة والهمة العالية والنظرة الثاقبة فيتمكنون من حلّ أغلب المصاعب الاجتماعية بروحهم السامية ويبنون العالم المليء بالأمن والسلام. والحقّ أنّ كلّ إصلاح اجتماعي إنّما يعتمد على هذا الانقلاب الفكري والروحي.

التطور الصناعي المذهل في عصر المهدي عجل الله فرجه الشريف:

تشير الأحاديث التي أوردناها بتسلسل ١ و٢ و٣ و٤ في مبحث «سبيل الانتصار» إلى أنّ هذه الطفرة العلمية والصناعية ستكون شاملة واسعة.

وستكون وسائل جمع المعلومات غاية في التطور؛ بحيث تصبح الدنيا كراحة اليد في وضوحها فتكون هنالك سيطرة تامة على أوضاع العالم دون ضياع الوقت في معالجة المشاكل؛ بحيث يقضي على بؤر الفساد (المتعمدة وغير المتعمدة) في مهدها[١].

كما تحلّ قضية الضوء والطاقة بحيث لم تعد هناك من حاجة إلى الطاقة الشمسية التي تنبثق منها أنواع الطاقة سوى الطاقة الذرية.

ولعلّ ذلك سيكون في ظلّ نظام ذري متكامل للطاقة خال من

---

(١) فراجع الفصل السابق الحديث الثاني.

الإشعاعات الحالية الضارة التي تحول دون الاستفادة من هذه الطاقة[١]. كما سيشهد تطور وسائط النقل التي تأبى المقارنة بالوسائل السائدة اليوم، والتي لا تقتصر على الحركة بأقصر مدّة على سطح الكرة الأرضية، بل تقوم برحلاتها الفضائية في فترة قياسية[٢]. وهذا ما يمّهد السبيل أمام تلك الحكومة لتحقيق مشاريعها الإصلاحية.

وورد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ قائمنا إذا قام مدّ الله بشيعتنا في أسماعهم وأبصارهم، حتى لا يكون بينهم وبين القائم بريد، يكلمهم فيسمعون وينظرون إليه وهو في مكانه»[٣].

أي يتمتع كافّة الناس بوسائل نقل «الصوت» و«الصورة» بشكل بسيط وسهل، بحيث لم تعد هنالك من حاجة إلى وجود دائرة باسم البريد في حكومته ودولته، كما تحلّ أغلب القضايا دون الحاجة إلى الأوراق - كما هي سائدة اليوم والتي تتطلّب عددًا من الأفراد الذين يمارسون مهامهم ويستغرقون مدّة طويلة بغية كشف الحقّ والواقع - فهنالك أجهزة الشهود والحضور التي تدير شؤون المجتمع، ويا لها من أجهزة تشيع أجواء الهدوء والاستقرار والاستفادة من عامل الوقت.

---

(١) راجع الحديث الأول ص٢٢٢.

(٢) راجع الحديث الثالث ص٢٢٤.

(٣) روضة الكافي (حسب نقل منتخب الأثر، ص٤٨٣).

كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ المؤمن في زمان القائم وهو بالمشرق سيرى أخاه الذي في المغرب؛ وكذا الذي في المغرب يرى أخاه الذي بالمشرق»[١].

فالارتباط قائم بين الجميع، ولا يقتصر على مستوى الحكومة، ومن شأن الارتباطات الظاهرية والبدنية ترسيخ الوشائج المعنوية بحيث يصبح العالم بمثابة البيت وناسه أسرة واحدة. وهكذا سيكون العلم والمعرفة والصناعة وسيلة لتحسين أوضاع العالم وتعميق أسس الأخوة، لا التفرقة والهدم كما هي عليه اليوم.

التطور الاقتصادي والعدل الاجتماعي:

تتمتع الأرض التي نعيش عليها بإمكانات ضخمة تسعنا وسائر الأجيال القادمة وما لا يحصى من السكان البشري، إلاّ أنّ عدم الاطلاع الكافي على المصادر المتوفرة بالفعل ومصادر الطاقة بالقوة، من جانب، وعدم وجود النظام الصحيح لتوزيع الثروات، من جانب آخر، أدّى إلى بروز مختلف الأزمات والحاجات؛ إلى درجة أنّ عصرنا يشهد يوميًا موت العديد من المحرومين جوعًا.

فالنظام الذي يحكم الاقتصاد العالمي الراهن نظام استعماري وإلى جانبه نظام حربي ظالم يستهدف القضاء على الطاقات الفكرية والبشرية التي ينبغي استغلالها في البحث عن المصادر والمنابع الضرورية لتحسين حياة الإنسان والنهوض بمستواه المعيشي.

---

(١) منتخب الأثر، ص٤٨٣.

والواقع ما إن ينهار هذا النظام حتّى تتكاتف الجهود لاستخراج المصادر الضرورية، والتي تعتمد الوسائل العلمية المتطورة لتحقق تلك الإنجازات العملاقة التي تسهم في إنعاش الاقتصاد العالمي.

ولذلك نرى بعض الإشارات إلى هذه السعة الاقتصادية المتعلقة بحكومة المصلح العظيم في بعض الروايات الإسلامية ومنها: «إنّه يبلغ سلطانه المشرق والمغرب؛ وتظهر له الكنوز؛ ولا يبقى في الأرض خراب إلاّ يعمره»[١].

والحقّ، لا بدّ أن يكون الأمر كذلك، ذلك لأنّ خراب الأرض ليس بسبب قلة الطاقة البشرية ولا الأزمة المالية، بل وليد خراب الإنسان وهدر الطاقات الإنسانية وعدم الشعور بالمسؤولية، فإن غيبت هذه الأمور في ظلّ النظام الاجتماعي الصحيح، فإنّ العمارة ستكون قطعية، سيّما أنها تستند إلى طاقات خارقة جديدة.

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إذا قام القائم حكم بالعدل، وارتفع في أيّامه الجور، وأمنت به السبل، وأخرجت الأرض بركاتها، ورد كلّ حقّ إلى أهله...، وحكم بين الناس بحكم داود عليه السلام وحكم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، فحينئذٍ تظهر الأرض كنوزها، وتبدي بركاتها، ولا يجد الرجل منكم يومئذٍ موضعًا لصدقته ولا لبره لشمول الغنى جميع المؤمنين...»[٢].

---

(١) إسعاف الراغبين، الباب الثاني، ص١٤٠ و١٤١.

(٢) بحار الأنوار، ج٥٢، ص٣٣٩.

ويفيد التركيز على ظهور بركات الأرض واستخراج الكنوز ازدهار القطاع الزراعي حتّى يبلغ ذروته، إلى جانب اكتشاف المصادر الجوفية والاستفادة منها. وسيرتفع الدخل السنوي للأفراد بحيث لا يبقى في المجتمع فقير، والكلّ يعيش حالة الاكتفاء وعدم الحاجة.

وممّا لا شك فيه أنّ إجراء مبادئ العدل والقسط واستقطاب الطاقات البشرية واستغلالها بالشكل الصحيح يفرز تلك النتائج الإيجابية؛ وذلك لأنّ الجوع والفقر والفاقة ليست من إفرازات الأزمة والقلّة، بل هي نتيجة مباشرة وغير مباشرة للمظالم والتمييز وانعدام العدالة وهدر الطاقات وتضييع الثروات.

وورد في حديث آخر في مصادر العامة عن أبي سعيد الخدري. قال رسول الله ﷺ: «أُبشركم بالمهدي يملأ الأرض قسطًا كما ملئت جورًا وظلمًا، يرضى عنه سكان السماء والأرض، يقسم الماء صحاحًا؛ فقال رجل: ما معنى صحاحًا، قال بالسوية بين الناس؛ ويملأ قلوب أمّة محمّد ﷺ غنى؛ ويسعهم عدله، حتّى يأمر مناديًا ينادي ويقول من له بالمال حاجة فليقم فما يقوم من الناس إلاّ رجل واحد، ثمّ يأمر له بالمال فيأخذه ثمّ يندم ويرده»[١].

ولا بدّ من الالتفات إلى بعض الأمور في تفسير هذا الحديث.

١- المراد من رضى سكان السماء عن حكومته ربّما يكون إشارة

---

(١) نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار، ص١٥٦ و١٥٧ طبعة مصر.

إلى ملائكة السماء وملائكة الله المقربين، أو إشارة إلى سعة حكومته إلى سائر الكرات المأهولة وافتتاح طرق السموات والرحلات الفضائية إلى نقاط العالم النائية.

٢- المراد من التقسيم العادل للثروة بالسوية - بالاستناد إلى علمنا بأنّ الإمام المهدي ﷻ حافظ ومروِّج لأحكام الإسلام التي تقرّ بضرورة العطاء الأكثر بالنسبة إلى الجهود الأكثر والكفاءات الأعمق - إمّا إشارة إلى أموال بيت المال والأموال العامّة بصورة كلية التي يتساوى فيها الجميع في الحكومة الإسلامية - كما ورد ذلك في سيرة النبي ﷺ وعلي عليه السلام على العكس ممّا ورد في سيرة أغلب الخلفاء كعثمان الذي اعتمد صنوف التميز - أو إشارة إلى التسوية في العطاء في ظلّ الظروف المتساوية، بالعكس ممّا عليه الوضع الآن حيث يتقاضى عامل مثلًا في منطقة من العالم عشرة دولارات مقابل الساعة من العمل، بينما لا يتقاضى عامل آخر في منطقة أُخرى وفي ظلّ ذات الظروف دولارًا واحدًا إزاء عمل عشر ساعات، وهذا قمة الظلم والإجحاف.

٣- النقطة الأُخرى التي نستفيدها من الحديث المذكور هي عدم وجود حتّى فرد واحد معدم ومحتاج في ذلك العصر، بدليل أنّ ذلك الفرد الذي يقوم لم يكن غنيًا على صعيد الروح ويشعر بالحرص والطمع، وإلاّ لم يكن محتاجًا من الناحية المادية، والمهم أنّ ذلك الزعيم يملأ القلوب بالغنى المعنوي والنفسي ويستأصل منها جذور الحرص المقيتة؛ ذلك الحرص

الذي يعد المصدر الرئيسي لتلك الجهود الجبّارة التي يبذلها اللاهثون وراء الثروة والذين لا يكفّون عن طلب المزيد، وكأنّهم مصابون بمرض الاستسقاء الذي يجعلهم يرتوون من الماء مهما نهلوا منه. ولعلّ العامل الآخر الذي يقف وراء جمع الثروة هو عدم الوثوق بالمستقبل، وهو الأمر الذي يزول بالمرة في ظلّ عدالته الاجتماعية، فلا يرى شخص في نفسه من حاجة لجمع الثروة، ذلك لأن يومه وغده مضمونان.

كما ورد في حديث آخر عن النبي الأكرم ﷺ أنّه قال: «... حتّى تملأ الأرض جورًا فلا يقدر أحد أن يقول: الله! ثمّ يبعث الله عزَّ وجلَّ رجلًا منّي ومن عترتي فيملأ الأرض عدلًا كما ملأها من كان قبله جورًا وتخرج له الأرض أفلاذ كبدها ويحثو المال حثوًا ولا يعدّه عدًا»[١].

«أفلاذ»: جمع (فلذ) بمعنى القطعة. ويقال للأشياء النفيسة، أفلاذ الكبد، وهي هنا إشارة إلى المصادر الثمينة والقيمة تحت الأرض.

كما يحتمل أن تكون إشارة إلى أنّ الإنسان سيظفر بالنواة المذابة داخل جوف الأرض وهي عبارة عن قطعة نار وحرارة يمكن أن يستفيد منها كمصدر مهم للطاقة، كما يمكن أن يستخرج منها مصادر حيوية أخرى من فلذاتها ومعادنها.

(١) أمالي الشيخ (طبق نقل منتخب الأثر، ص١٦٨).

وهكذا السُمو الأخلاقي وضمان الحاجات المستقبلية واتساع مصادر الدخل. والخلاصة، إنّ جمع الغنى الروحي والمادي سيؤدي إلى عدم الحاجة إلى عدّ الأموال، فلكلّ محتاج أن يقصد بيت المال ويسحب ما يشاء دون عناء.

كلّ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ هنالك بعض الأخبار التي تشير إلى تمتع عصره بحركة عمرانية من قبيل بناء المدن وشق الطرق وبناء المساجد المتواضعة البعيدة عن التكلّف الظاهري، إلى جانب هَدْم المباني التي تسبب بعض الحرج للناس. ومن ذلك:

١- قال الإمام الصادق عليه السلام: «ويبنى في ظهر الكوفة مسجدًا له ألف باب ويتصل ببيوت الكوفة بنهر كربلاء وبالحيرة»[١]. ونعلم أنّ المسافة بين هاتين المدينتين تبلغ أكثر من ٧٠ كيلومترًا.

٢- قال الإمام الباقر عليه السلام: «إذا قام القائم...، تكون المساجد كلها جماء لا شرف لها كما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويوسع الطريق الأعظم فيصير ستين ذراعًا، ويهدم كلّ مسجد على الطريق، ويسد كلّ كوة إلى الطريق، وكلّ جناح وكنيف وميزاب إلى الطريق»[٢].

٣- وورد في حديث طويل عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «...

(١) بحار الأنوار، ج٥٢، ص٣٣٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٣٣.

وليصيّرنَ الكوفة أربعة وخمسين ميلًا وليجاورن قصورها كربلاء، وليصيرن الله كربلاء معقلًا ومقامًا»[١].

٤- وكثيرة هي الروايات الواردة بشأن تقدم الزراعة ومضاعفة المنتجات الزراعية ووفرة المياه والعمران في كافة المجالات[٢].

التقدم القضائي:

إنّ الوقوف بوجه الظلم والفساد يتطلب من جانب ترسيخ دعائم الإيمان والأخلاق، ومن جانب آخر، وجود نظام قضائي مقتدر يتحلى باليقظة التامة والإحاطة الشاملة.

قطعًا يزود التطور الصناعي الإنسان بوسائل وأجهزة يمكن بواسطتها - عند الضرورة - السيطرة على كافّة الأفراد ورصد المشبوهين فهم الذين تُشمُّ منهم رائحة الفساد والانحراف، والتقاط الصور لما يخلّفه المجرمون من آثار في مواقع ارتكاب الجريمة، وتسجيل أصواتهم والتعرف عليهم من خلالها. حقًّا إنّ تمتع الحكومة الصالحة بهذه الإمكانات يمنحها الحصانة ضد الفساد والظلم وإحقاق الحقوق وإيصالها إلى أصحابها.

لا شك في أنّ البرامج الأخلاقية إلى جانب الوسائل الغاية في التطور ستأخذ مجراها في عصر ذلك المصلح العظيم بحيث تسير أغلبية المجتمع بالاتجاه الإنساني الصحيح المفعم بالعدل والسلام.

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٣، ص١٢.

(٢) منتخب الأثر، ص٤٧٢ و٤٧٣ و٤٧٤.

ولكن طالما خلق الإنسان حرًا، وليس هنالك ما يجبره على أفعاله فسوف يكون هنالك، شئنا أم أبينا، بعض الأفراد - وإن كانوا أقلية - وسط ذلك المجتمع الصالح الذين يسيئون الحرية ويستغلونها بغية تحقيق أطماعهم وأهدافهم وعليه، فلا بدّ من وجود جهاز قضائي فعال ومقتدر ينتصف للمظلوم من الظالم.

ويتضح من خلال تأمل الجرائم والجنايات والمفاسد الاجتماعية وطرق معالجتها، أنّه:

أوّلًا: إنّ بسط العدالة الاجتماعية والتوزيع العادل للثروات سيستأصل جذور أغلب المفاسد الاجتماعية التي تنبثق من التنازع على الأموال والثروات واستغلال الطبقات الضعيفة والتزييف والخداع وأنواع الغش والكذب والخيانة وارتكاب الجريمة من أجل الحصول على الدخل الأكثر؛ ولعلّ تنامي حدة الفساد والظلم في كلّ مجتمع إنما تتوقف على تلك الأمور ومدى انتشارها.

ثانيًا: للتعليم والتربية الصحيحة عظيم الأثر في مكافحة الفساد والانحراف الاجتماعي والأخلاقي؛ وأحد علل اتساع رقعة الفساد في المجتمعات المعاصرة إنّما يتمثل في عدم الاستفادة الصحيحة من التعليم؛ بل عادة ما يوظف في خدمة المشاريع الاستعمارية الفاسدة، والانهماك ليل نهار في عرض الأفلام المبتذلة والقصص المضلة وإشاعة الأخبار الكاذبة التي تضمن مصالح الاستعمار العالمي.

طبعًا لبعض هذه الأمور جذور اقتصادية كما تهدف إلى تخدير العقول واستنزاف القوى الفاعلة والواعية في كلّ مجتمع لضمان مصالح الاستعمار الاقتصادي.

وبالطبع إن تغيّرت هذه الأوضاع فإنّ جانبًا كبيرًا من الفساد الاجتماعي سيزول خلال مدة قصيرة، ولا يتمّ ذلك إلاّ من قبل حكومة عالمية صالحة تنشد تحقيق مصالح البشرية جمعاء - لا مصالح المستغلين - وبناء عالم معمور وحر مملوء بالعدل والسلام.

ثالثًا: إنّ وجود جهاز قضائي يقظ وفاعل ووسائل مراقبة دقيقة بحيث لا يفلت مجرم من سيطرته ولا يستطيع انتهاك عدالته، هو العنصر الآخر الذي يحدّ من انتشار الفساد وانتهاك حرمة القانون. فلو اتصلت هذه الأبعاد الثلاثة مع بعضها، لكانت أبعادها التأثيرية كثيرة للغاية.

يستفاد من الأحاديث المرتبطة بعصر حكومة المهدي ﷺ أنّه يستعين بهذه العناصر الوقائية الثلاثة في نهضته، حتّى وردت بشأن دولته تلك العبارة والتي أصبحت مثلًا يضربه الناس، في أنّ عصره سيشهد عيش الذئب إلى جانب الشاة.

قطعًا ليس هنالك من تغيير في ماهية الذئاب ولا داعٍ أصلًا لذلك، كما لا تفارق الشاة حالتها الطبيعية؛ وهذه إشارة إلى بسط العدل في العالم وتغيير أُسلوب الأفراد الذئاب في صفاتهم والذين يتواطأون مع الحكومات الجبارة في امتصاص دماء الطبقات الضعيفة في المجتمع البشري.

فإمّا أن تتغير روحيات هؤلاء بصورة تامة في ظلّ النظام الجديد، ذلك لأنّ الذئبية ليست من طبيعة الإنسان، ومن الصفات العرضية التي يمكن تغييرها، أو على الأقل كبح جماحها، والانتفاع بنعم الله بصورة عادلة بدلًا من هضم منافع الآخرين.

ومن الأمور الجديرة بالتأمل في هذا المجال ما ورد في حديث النبي الأكرم ﷺ بشأن التوزيع الصحيح للأموال؛ حيث يعيش الناس حالة من الغنى الروحي والمادي حتّى تبقى الأموال دون من يطلبها، أي أنّهم يبلغون مرحلة تربوية تجعلهم يرون المال الزائد على حاجتهم وبالًا عليهم.

ليس هنالك ما يقلقهم بشأن ضمان معيشتهم لحاضرهم ومستقبلهم بحيث يقارفون الخطيئة بغية الحصول عليها.

كما ورد في حديث آخر أنّ المستوى الفكري للناس في عصره يبلغ مرحلة يصعب مقارنتها بالعصر الراهن، وبالطبع سوف تغيب كافّة النزاعات والخلافات التي يفرزها قصر النظر وضيق الأُفق وضحالة المستوى الفكري واستغراق الجهود في الأموال والثروات.

وعلى ضوء ما أوردناه سابقًا بشأن المراقبة الدقيقة في حكومته حسبما ورد في الروايات، فإنّ المجرمين لا يشعرون بالأمن حتّى في بيوتهم، ربّما لوجود بعض الأجهزة المتطورة التي تحصي حتّى أمواجهم الصوتية، وهذا بحدّ ذاته إشارة إلى سعة إبعاد التصدي للفساد في عصر الإمام.

وعبارة «حكمه كحكم داود عليه السلام ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلم» كأنّها تشير إلى نقطة لطيفة في أنّه يستعين بالضوابط القضائية الظاهرية من قبيل الإقرار والشهادة وما شابه ذلك إلى جانب الطرق النفسية والعلمية في التعرف على المجرمين، على ضوء بعض النماذج في عصر داود عليه السلام.

بالإضافة إلى أنّ وسائل كشف الجرم تحرز تطورًا باهرًا على غرار تطور العلوم والتقنيات بحيث يصعب على المجرم أن يفلت من العدالة.

قرأت في بعض الصحف بشأن عجائب دماغ الإنسان، أنّ هذا الدماغ يبعث بأمواج تتناسب مع مكنوناته الباطنية؛ بحيث يمكن تمييز صدقه من كذبه على ضوء تصريحاته. قطعًا إنّ هذه الوسائل تتكامل وستخترع وسائل متطورة أخرى، وبالاستعانة بالأساليب النفسية المتطورة يمكن السيطرة على المجرمين، وإن قلّ المجرمين في مثل هذا المجتمع (مع ذلك فالقضية تبدو مهمة).

وأكرر مرارًا: من الخطأ الاعتقاد بأنّ كلّ هذه الأمور تعالج في عصره من خلال المعجزة؛ ذلك لأنّ المعجزة استثناء وحين الضرورة سيّما في إثبات حقانية دعوى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الإمام عليه السلام. ولا ترد لتنظيم شؤون الحياة اليومية والطبيعية، والدليل على ذلك لم يعتمدها أي نبي لهذه الأغراض.

وعليه، فإنّ مسيرة حكومته العالمية من ذلك النموذج الذي أشرنا إليه، لا نموذج الإعجاز.

على كلّ حال، فإنّ الأمن في ظلّ حكومته العالمية على درجة من السعة والشمولية بحيث تستطيع المرأة - كما ورد في الرواية - أن تسير لوحدها من شرق العالم إلى غربه دون أن يتعرض لها أحد.

وأخيرًا، إن أضفنا مسألة تواضع عيشة المهدي عجل الله فرجه الشريف - كما جاء في بعض الروايات - تتضح الأمور السابقة بجلاء، فسيرته قدوة وأسوة لأتباعه فضلًا عن عامة الناس، وبالاستناد إلى هذا الموضوع في أنّ القسم الأعظم من الجرائم والجنايات والمفاسد الاجتماعية التي تفرزها الحياة الموغلة في الرفاه والمصارف العبثية الطائشة، فإنّه يتضح الدليل الآخر على إزالة المفاسد في ظلّ حكومته العالمية.

فقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «وما لباس القائم عليه السلام إلاّ الغليظ وما طعامه إلاّ الجشب»[1]. كما ورد هذا المضمون نفسه عن الإمام الصادق عليه السلام[2].

الحكومة المديدة:

رغم ما ورد في بعض الروايات أنّ مدة حكومته تمتد من خمس أو سبع سنوات إلى ٣٠٩ سنة (مدة مكث أصحاب الكهف) - والتي تشير في الواقع إلى مراحل وعصور تلك الحكومة؛ حيث

(١) منتخب الأثر، ص٣٠٧.

(٢) المصدر السابق.

يستغرق تبلورها وتشكيلها مدة خمس أو سبع سنوات وعصر تكاملها ٤٠ سنة وعصرها الأخير أكثر من ثلاثمئة سنة. لا بدّ من التمعن - ولكن بغض النظر عن الروايات الإسلامية فمن المفروغ منه أنّ كلّ هذه المقدمات ليست من أجل عصر قصير المدة، بل قطعًا من أجل مدة طويلة تتناسب وجميع هذا التحمل والسعي والجهد!

بناء على جميع الأصعدة الفكرية والثقافية:

إنّ الأديان السماوية في الواقع كالماء الذي ينزل من السماء، فقطرات مياه المطر الشفافة - إن لم يكن الجو ملوثًا - نقية ولطيفة وحيوية وخالية من أي تلوث، فهي تحمل بشائر الحياة أينما حلّت لتروي العطاشى وتمنحهم الروعة والجمال.

أمّا إن سقطت على أرض ملوثة فإنّها تفقد صفاءَها ونقاءَها بالتدريج، بل تبدو أحيانًا كريهة عفنة يهرب من رائحتها كلّ من يراها. والأديان السماوية تبدو بادئ الأمر بصفاء ونقاء تلك القطرات وإشراقة الشمس وجمال الربيع، وأثر اتصالها بالأفكار المنحطة للجهال والأيدي الأثيمة للمغرضين والامتزاج بالعادات والتقاليد والأذواق والأمزجة الشخصية، تنحرف أحيانًا حتّى تفقد بريقها وجاذبيتها بالمرة.

ولم يسلم من ذلك الدين الإسلامي هذا الدين الحيّ المفعم بالحيوية والنشاط، والذي نهض بتلك الأمّة المتخلفة ليجعلها تتربع على ذروة المدنية، رغم سلامة القرآن ووجود المخلصين

من العلماء الذين يذبون عن حريم الدين ويضحون من أجل حفظ أصالة تعاليمه ومفاهيمه. ولكن لا بدّ من الإذعان بأنّ الكثير من مفاهيمه قد مسخت لدى الكثير من المسلمين، بحيث يمكن القول إنّ الإسلام الأصيل على عهد النبي ﷺ بدا غريبًا في أكثر الأوساط.

وقد بلغت بعض المفاهيم من قبيل الزهد والتقوى والصبر والشهادة والانتظار والشفاعة والعبادة درجة من التحريف بحيث عادت غريبة عن هذا الدين الحقّ. كما آلت أغلب الأحكام الإسلامية بالحيل الشرعية وغير الشرعية إلى الاضمحلال كحكم الربا والفائز والذي لم يبق سوى اسمه.كما اعترى النسيان البعض الآخر - كالهجرة والجهاد والشهادة - أو على الأقل اقتصرت على صيغتها التاريخية والمختصة بعهد معين في صدر الإسلام.

واختلط التوحيد بالشرك وعاشت مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي تمثل الإسلام الأصيل على ضوء: «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي»[١]، الغربة بين أغلب الأوساط الإسلامية، وقد ابتعد عنها الناس ابتعد أن قذفت بأشنع التهم. وسيقوم المصلح على غرار البستاني الماهر الذي يستأصل العلف من النبتة الأصيلة رغم تعلقه بها وصعوبة فصله عنها، باستئصال كلّ ما علق بهذا الدين، وسيقطع كلّ غصن أعوج اتصل بشجرة

---

(١) ورد هذا الحديث في عدة مصادر روائية لأبناء العامة، وللوقوف على المزيد راجع كتاب «القرآن والحديث».

الإسلام. وسيزيل تلك التفاسير المنحرفة للدين ويقطع الأيدي الأثيمة التي تطاولت على حرمة مفاهيمه القيمة.

وخلاصة القول، فإنّه سيعيد الإسلام إلى سابق عزّه على عهد رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام .

إنّ إحدى مهام المهدي عجل الله فرجه الشريف تطهير الإسلام ممّا علق به من الغبار، وبعبارة أخرى إعادة بناء صرحه العملاق.

فقد كان المسجد آنذاك مركزًا لكافة الأنشطة السياسية والعلمية والثقافية والاجتماعية والأخلاقية، وأصبح اليوم بؤرة للعجزة والعاطلين ووسيلة لقضاء الوقت، وربّما عادت طبيعية، وسيعيده إلى سابق عهده، وسينفخ روح الحياة في جسد الجهاد، ويطهر التوحيد من كافة أنواع الشرك، ويفسر مفاهيم الدين بما يقضي على كلّ انحراف وتشويه، وسيطرح الآراء الشخصية المفروضة على الدين، ويبعده عن صدأ العادات والتقاليد، وسينهض بالإسلام ويخرجه من حالة التقوقع الوطني والقومي ويظهره بشكله العالمي الأصيل، وسيقطع تلك الأيدي الأثيمة التي دست الحيل الشرعية في الدين، ويعرض أحكامه وقوانينه كما ينبغي.

ويبدو أنّ سلسلة هذه التغييرات على قدر من السعة والشمولية؛ بحيث عبرت عنها بعض الروايات الإسلامية بالدين الجديد.

روى صاحب كتاب إثبات الهداة حديثًا عن الإمام

الصادق عليه السلام أنّه قال: «إذا خرج القائم يقوم بأمر جديد، وكتاب جديد، وسنة جديدة، وقضاء جديد»[١].

ومن الواضح أنّ هذا الأمر الجديد والكتاب الجديد والقضاء الجديد لا يعني أنّه يأتي بدين جديد، بل يخرج الإسلام من خضم ما علق به من أساطير وخرافات وتحريفات وتفاسير خاطئة، فيبدو كأنّه دين جديد وبناء حديث.

كما أنّ الكتاب الجديد لا يعني نزول كتاب جديد عليه من السماء؛ ذلك لأنّ الإمام قائم وحافظ للدين، لا أنّه نبي ويأتي بكتاب جديد، بل يعيد القرآن إلى سابق عزّه فيبدو كأنّه كتاب جديد بعد أن يطرح عنه التحريفات المعنوية والتفاسير المشبوهة.

والشاهد على ذلك، وإضافة إلى صراحة القرآن في مسألة ختم النبوة في الآية ٤٠ من سورة الأحزاب، والروايات التي أثبتت صراحة خاتمية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بعض الأحاديث التي صرحت بأنّ سيرته سيرة جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والكتاب والسنّة.

سأل عبد الله بن عطاء الإمام الصادق عليه السلام عن سيرة المهدي عجل الله فرجه الشريف فقال عليه السلام: «يصنع ما صنع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يهدم ما كان قبله كما هدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر الجاهلية ويستأنف الإسلام جديدًا».

(١) إثبات الهداة، ج٧، ص٨٣.

وورد في كتاب إثبات الهداة أنّ رسول الله ﷺ قال: «القائم من ولدي؛ اسمه اسمي وكنيته كنيتي، وشمائله شمائلي، وسنته سنتي، يقيم الناس على شريعتي وطاعتي، ويدعوهم إلى كتاب ربّي»[١].

وورد في كتاب «منتخب الأثر» عن رسول الله ﷺ قال: «وأنّ الثاني عشر من ولدي يغيب حتّى لا يرى، ويأتي على أُمّتي بزمن لا يبقى من الإسلام إلاّ اسمه، ولا يبقى من القرآن إلاّ رسمه فحينئذٍ يأذن الله له تبارك وتعالى بالخروج فيظهر الإسلام به ويجدده»[٢].

وهذه الأخبار صريحة بما يغنينا عن أي توضيح.

وحدة الدين:

لا شكّ أنّ الخلافات المذهبية لا تنسجم والنظام التوحيدي في كافّة المجالات؛ لأنّ هذه الخلافات تكفي للقضاء على أية وحدة.

وبالعكس فإنّ أحد العوامل المهمّة للوحدة هو وحدة الدين والمذهب التي يسعها أن تفوق كلّ خلاف وفرقة واستيعاب كافة الأعراق واللغات والقوميات والثقافات المتعددة لتخلق منها مجتمعًا يعيش فيه الجميع بأخوّة ومحبة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٣].

---

(١) إثبات الهداة، ج٧، ص٨٣.

(٢) منتخب الأثر، ص٩٨.

(٣) سورة الحجرات، الآية ١٠.

ولذلك، فإنّ أحد أهداف هذا المصلح العظيم توحيد الصفوف في ظلّ توحيد المذهب.

ولكن لا ينبغي الشك في أنّ هذا التوحيد لا يمكن أن يستند إلى منطق الجبر. فالمذهب يتعامل مع قلب الإنسان وروحه، ونعلم جميعًا بأنّ القلب والروح خارجة عن دائرة الجبر والإكراه.

أضف إلى ذلك إنّ سنّة النبي الأكرم ﷺ - كما يشهد لها القرآن - لم تكن قائمة على أساس الجبر والإكراه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[١].

ومن هنا، استوعب الإسلام أهل الكتاب كأقلية، ووفرّ لهم الدعم والإسناد ما لم يخرجوا على الدولة الإسلامية، وعلى ضوء تمتع تلك الحكومة العالمية على عهد ذلك المصلح العظيم بكافّة الوسائل المتطورة وتطهير الإسلام ممّا علق به من الشوائب والأدران إلى جانب جاذبيته القوية فإنّه يمكن التكهن بأنّ الأغلبية الساحقة ستتعاطف مع الإسلام وتجنح إليه فتصبح وحدة الأديان عملية من خلال الإسلام.

وقد وقفنا على هذه الحقيقة على ضوء الأدلّة العقلية، والروايات الإسلامية هي الأخرى تثبت ذلك.

روى المفضل في حديث طويل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «.. فوالله يا مفضل ليرفع عن الملل والأديان الاختلاف

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

ويكون الدين كله واحدًا، كما قال جلّ ذكره: إنّ الدِّين عند الله الإسلام»[(١)].

ورد في تفسير بعض الآيات القرآنية التي أشارت إلى قيام المهدي عجل الله فرجه الشريف.

وهكذا يرد الإسلام جميع القلوب والبيوت وزوايا الحياة بتوحيده الناصع.

مع ذلك لا يمكن القول إنّه سوف لن يكون هناك من وجود بصورة مطلقة لتلك الأقليات من أتباع الديانات الأخرى في تلك الدولة؛ ذلك لأنّ الإنسان حرّ الإرادة وليس هنالك من إكراه في ذلك النظام، فمن الممكن أن يدفع الخطأ والتعصب بعض الأفراد لمواصلة عقائدهم السابقة وإن كان الإسلام هو الغالب وهذه مسألة طبيعية.

لكن على كلّ حال، إن كانت هناك مثل هذه الأقلية فهي أقلية وادعة، وبالتزامها بالمقررات الواردة في أهل الذمة فإنها تحظى بحماية الدولة الإسلامية.

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٣، ص٤.

الفصل التاسع:
الأدعياء المزيّفون

ألم يظهر المهدي؟

يطالعنا التاريخ منذ القرن الأوّل بظهور بعض الأفراد الذين ادّعوا وانتحلوا عنوان المهدي، أم نسبهم الآخرون إلى ذلك، رغم أنّ هؤلاء الأفراد لم يفلحوا في تحقيق مدعاهم من قبيل بسط العدل والقسط وإصلاح العالم، بل لم يتمكنوا من ممارسة الإصلاح حتّى على مستوى المناطق الصغيرة التي عاشوا فيها.

ولعلّ أوّل فرد جعلوا له ذلك الاسم - رغم عدم رضاه - محمّد بن الحنفية، حيث كانت تعتقد الكيسانية: أنّه المهدي الموعود وأنّه لم يمت، بل هو في جبل رضوي[1] يحفظه أسدان.

والحال نعلم أنّ محمّد بن الحنفية

(١) جبل قرب المدينة وقد ذكرنا سبب ذكر هذا الاسم في دعاء الندبة في كتابنا «الرد على الأسئلة الدينية».

توفي في العام ٨٠ أو ٨١هـ، ودفن في البقيع - المقبرة المعروفة في المدينة - وبالطبع فقد خمدت اليوم أصوات تلك الفرقة ولم تعد تسمع.

ثمّ أقدم بعض خلفاء بني العباس بغية الخلافة واستغلال عقائد بعض السذج من الناس، وعلى ضوء الاستعداد الذهني للمسلمين وانتظار المهدي الموعود، بانتحال هذا الاسم وزعموا أنّهم المهدي. إلاّ أنّ مضي الزمان أثبت أنّهم ليس فقط لم يكونوا المهدي، بل كانوا من الظلمة الذين يقضي القضاء عليهم بسيف المهدي.

وقد استمرّ هذا الأمر فكان البعض هنا وهناك يزعم أنّه المهدي ويجتمع حوله عدد من الأفراد، لكن سرعان ما ينكشف أمره.

طبعًا هذا الادّعاء يبدو كبيرًا لا يصمد أمامه صاحبه؛ وذلك لأنّ أهداف هذا المصلح تتمثل في ملء الأرض قسطًا وعدلًا، وهذا يكفي لإفشال مخططات كلّ من يدعي أنّه المهدي.

وقد تفاوتت دوافع الأفراد في هذا الادّعاء، فالبعض كان مصابًا ببعض الأمراض النفسية أو السذاجة على الأقل، بينما كان البعض الآخر يسعى وراء المنصب، فادّعى ذلك لإشباع رغبته دون التأمل في عواقب الأمر.

كما كان البعض أُلعوبة بيد أعداء الإسلام الذين يستغلونهم لحرف أفكارهم من القضايا الحيوية التي يواجهونها، أو لبث

الفرقة والاختلاف والنفاق بين صفوف المسلمين وإضعاف قدرة المذهب، ولا سيّما قدرة علماء الدين الذين يشكلون الخطر الرئيسي الذي يهدد مصالحهم.

والخلاصة، إنّ ادّعاء المهدوية تواصل حتّى الفترة الأخيرة حين برز «السيّد محمّد علي باب»، رغم عدم قدرته بادئ الأمر على مثل هذا الادّعاء، بل على ضوء الوثائق الحية وشهادته المذكورة في كتبه أنّه لم يدع المهدوية، بل اكتفى بادعائه الباب وأنّه النائب الخاصّ للمهدي.

ولكن مع مرور الزمان وتجمع البعض حوله يجعله يغير رأيه فزعم أنّه المهدي[١].

وتفيد القرائن والوثائق عن سيرته وحياته وأتباعه - وقد جمعت بشكل رائع - أنّ ادّعاءَه هذا يُعزى إلى الأسباب الثلاثة؛ أي من جانب عملاء الدول الاستعمارية - كروسيا وبريطانيا وأميركا - حيث كان يتحرك على ضوء توجيهاتهم ويحظى بدعمهم وإسنادهم، كما كان يسعى إلى الحصول على المنصب، وكان يشكو من بعض الأمراض النفسية[٢].

(١) ورد في كتاب «ظهور الحقّ» الذي تقره هذه الفرقة (ص١٧٣) أنّ الباب كتب في أواسط العام ١٨٨٦ في السجن رسالة إلى الملا عبد الخالق «أنا القائم الحقّ الذي أنتم بظهوره توعدون» فامتعض بشدة من هذا الادعاء.

(٢) الدليل على مرضه النفسي إضافة إلى محتويات كتبه وعباراته التي تشبه تمامًا عبارات فرد مصاب بمرض نفسي، ما ورد في كتاب زعمائهم مثل كتاب «كشف الغطاء» للميرزا أبي الفضل الكلبايكاني من أنّ مجتهدي تبريز قالوا بعد استجوابهم «للباب» في ذلك المجلس «إنّ حديثك يبيح دمك، إلاّ أننا نحتمل وجود خبطة في دماغك فلا نصدر حكمًا بإعدامك».

ويبدو أنّه كانت هناك شبكة كبيرة، وقد عدّه بعض أعوانه متخلفًا فمنحوه شخصية تلعب دور مقدمة الظهور، وكان لهم دعاة كثيرون. إلاّ أن تشتت هذه الفرق[١] من جانب، ونشر الوثائق الحية عن الارتباط المباشر بالدول الاستعمارية، من جانب آخر[٢].

والأهم من كلّ ذلك عدم وجود المضمون الذي يسعه تلبية رغبات حتّى عوام الناس، إلى جانب فضحهم من قبل بعض المسلمين الواعين على أنّهم «حزب سياسي استعماري»، كلّ هذه الأمور كشفت سريعًا عن حقيقة أمرهم.

طبعًا بحثنا ليس في تقصي نقاط ضعف هؤلاء، فهذا يتطلب كتابًا مستقلًا، ولحسن الحظّ فقد أُلفت الكثير من الكتب بهذا الشأن وأنّ بعضها رائع في مضمونه[٣].

وهدفنا هنا بيان موضوعين:

١- يقول البعض: نعلم أنّ استغلالًا كبيرًا حصل ويحصل بالنسبة إلى الاعتقاد بظهور المهدي. أوليس من الأفضل أن نسكت عن هذا الموضوع لكي لا يكون شماعة فيستغلّه الآخرون، ولماذا نقر بشيء يمكن أن ينعكس علينا سلبًا؟

٢- السؤال الآخر الذي يقابل السؤال الأوّل تقريبًا: هل كلّ من

---

(١) تجاوز عدد فرقهم لحدّ الآن العشرين فر قة.

(٢) راجع كتب «كينازد الكوركي» و«برنس دالكوركي» وكتاب «بي بهائي باب وبها».

(٣) راجع كتب «ماذا يقول البهائي» و«محاكمة وتحقيق» و«هدية النملة» و«برنس دالكوركي».

ادّعى المهدوية كان كاذبًا، ألا يحتمل صدق البعض، فلم يكن الجميع ممّن يسعى إلى المنصب أو كان أُلعوبة بيد الاستعمار؟

وهدفنا هنا الجواب عن هذين السؤالين مع تحليل لهما.

أمّا بشأن السؤال الأوّل، فلا بدّ بادئ الأمر من طرح هذا السؤال: هل هنالك من حقيقة في هذه الدنيا لم تستغل من قبل الآخرين؟

أوَلم يدلّنا التاريخ على كلّ أولئك الذين ادّعوا النبوة، وما زالت هذه الادّعاءات قائمة حتّى في عصر الذرة والفضاء.

فما أحرانا أن ننسى أصل دعوة الأنبياء ونتنكر كالبراهمة لأصل النبوة لكي نتخلص من الأدعياء المستغلّين! هل هذا كلام منطقي؟

لقد سمعنا ونسمع الكثير من الأفراد الذين ينتحلون مهنة الطب والهندسة بغية إشباع بطونهم والحصول على الأموال، فهل يسعنا القول إنّ عنوان الطبيب أخذ يستغلّ من قبل البعض ولا بدّ من التنكر بصورة تامة لهذه المهنة.

إنّ مثل هذا الكلام وإن بدا غاية البعد عن المنطق، إلاّ أنّ المؤسف أنّه مذكور في بعض كتب من ينكر أصل ظهور المهدي.

على كلّ حال، فإنّ قاعدة كلية في أنّ كلّ كذب يسعى لأن يلبس ثوب الصدق ليحظى بالاعتبار المطلوب، ليس هنالك من

خائن وسارق وكاذب يظهر بصورته الحقيقية، بل يسعى لتحقيق أهدافه من خلال التظاهر بالأمانة والطهر والصدق. فهل هذا دليل على عدم اعتبارية هذه المفاهيم الإنسانية الرفيعة، هذا أوّلًا.

وثانيًا: هل الاعتقاد بظهور المهدي حقيقة مستغلة أم وهم وخيال؟ إن سلمنا بأنّه حقيقة - وينبغي أن تكون كذلك لوجود عدّة أدلة على ذلك - فلا يمكن التخلي عنها لاستغلالها من قبل هذا أو ذاك، ولو فرضنا لم تكن حقيقة، فلا بدّ من إسقاطها، سواء استغلت أم لم تستغل.

على كلّ حال، فإنّ أسلوب الاستفادة الصحيحة أو غير الصحيحة من موضوع لا يمكن أن تكون وسيلة لإصدار الحكم بشأن ذلك الموضوع.

فلو أصبحت الطاقة الذرية وسيلة حربية مستغلة من قبل الظلمة لتضرب بها منطقة هيروشيما وخلفت ثلاثمئة ألف قتيل ونفس هذا العدد من الجرحى الذين ما زالوا يعانون من تلك الجروح بعد مرور ثلاثين سنة، فهل يدعونا هذا إلى التخلي عن هذه الطاقة العظيمة أو إنكار أصل وجودها؟ أم نسعى إلى الاستفادة الصحيحة منها ولضمان مصالح المجتمع البشري؟

أمّا السؤال الثاني فيبدو أهم وهو: هل كلّ من ادّعى المهدوية كان كاذبًا؟ ونعتقد أنّ الجواب عن هذا السؤال يبدو سهلًا على ضوء العلامات ونتائج هذا الظهور العظيم.

فقد علمنا في الأبحاث السابقة أنّ للمهدي رسالة عالمية

يسعى إلى تحقيقها من خلال الاستفادة من كافة الوسائل والإمكانات المتاحة. ورسالته الأصلية القضاء على كافة أنواع الظلم والجور وإرساء قواعد الحكومة العالمية على أساس العدل والقسط ومكافحة التمييز والاستعمار والاستغلال.

فهو ينهض بمستوى الأفكار.

وهو الذي يعمل على تقدم العلوم والمعارف.

وهو الذي يحرك العالم في كافة المجالات.

وهو الذي يجمع كافة أتباع الديان تحت راية واحدة.

وهو الذي يقوم بالتوزيع العادل لثروات العالم.

وهو الذي ينعش الاقتصاد العالمي بحيث لا يبقى محتاج في العالم.

وهو الذي يعطي كلّ ذي حقّ حقه.

وهو الذي لا يدع مكانًا خربًا إلاّ عمَّره.

وسيبلغ الأمن في عصره مرحلة تجعل المرأة تنطلق من شرق العالم إلى غربه دون أن يسيء لها أحد.

وسيستخرج كنوز الأرض ويصنع المجتمع التوحيدي الموحد.

هذه هي المشاريع العملية والخطط المنبثقة عن تلك النهضة العالمية الكبرى في أكبر نهضة للتاريخ البشري، والتي أشارت إليها مختلف المصادر، وقد ذكرنا تفاصيلها في الفصول السابقة.

فهل استطاع أي من أولئك الأدعياء تحقيق واحد بالألف من هذه المشاريع، بل هل استطاع أي منهم أن ينظم منطقته أو حيّه على ضوء هذه البرامج؟

إنّنا نرى اليوم مدى اتساع رقعة الظلم والجور والاعتداء وهضم الحقوق؛ وقد أودت الحرب العالمية الأولى والثانية بحياة الملايين وجرحت الملايين وملأت العالم بالدماء.

وما زالت الهوة تتعمق يومًا بعد آخر بين البلدان الغنية والفقيرة؛ بحيث ينام كلّ ليلة ألف مليون من هذا العالم جوعى، وما زالت السجون مليئة بالأبرياء، وما زال الجبابرة يجرعون الناس أنواع العذاب، أي إنّ العالم ما زال يئنُّ من الظلم والجور، فليت شعري متى ملئ بالعدل والقسط؟ وهذا أقوى دليل على مزاعم أولئك الأدعياء، ردّ قصير لكنه حاسم وقاطع.

أجل ما زالت تلك الشمس لم تخترق الحجب ولا بدّ من الانتظار حتّى ذلك اليوم الذي تنقشع فيه كافة السحب والغيوم، فيضيء هذا العالم المظلم بنور طلعته البهية، وما أقرب هذا اليوم «أليس الصبح بقريب».

أنارك نائين[١] - ناصر مكارم الشيرازي
رمضان ١٣٩٨هـ
تموز ١٩٧٨م

---

(١) آخر منفى للمؤلف على عهد النظام المُباد.

الحكومة العالمية للإمام المهدي

آنذاك سوف لن تكون التعاليم الإسلامية بصيغة بعض القوالب الصورية الجافة والألفاظ الخاوية، بل ستكون نظرية الحياة السائدة في كل مكان.

آنذاك ستكون المسؤولية واليقظة عامة شاملة، وسيحول اتساعها دون استغلالها من قبل بعض الأفراد.

وسوف لن تستطيع حينها المنافع الشخصية أن تحول دون القضاء الصحيح، لا على غرار ما يحصل اليوم من قبل بعض الساحقين لحقوق الإنسان، حين يرتقون منصة المؤتمرات العالمية ويتحدثون بحماس عن هذه الحقوق والحريات، والذين لا يلتزمون في الواقع بأي من بنودها.

الاستقرار والأمن آنذاك ليسا كالأمن الذي نراه في بعض بقاع العالم، والذي يفرزه الخوف من الأسلحة الفتاكة.

ISBN 978-614-464-033-3





